14 me Année No. 684

Lundi—13—8—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٤ «القاهرة في يوم الإثنين ١٤ رمضان سنة ١٣٦٥ — ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٦» السنة الرابعة عشرة

النقد عنـــد العرب

وأسباب ضعفهم فيه

— ٣ —

أما الأسباب التي دفعتهم إلى سلوك هذا النهج في نقد الشعر، فمن السهل تلخيصها في خمسة أمور لا يصعب عليك استنتاجها مما تقدم:

الأمر الأول ما ذكرناه من أن علماء اللغة والنحو لم يروا الفضل في الشعر إلا فيما يمكن الاحتجاج به، وحسبهم من ذلك البيت والبيتان.

الأمر الثاني — وهو من قبيل الأول — أن علماء البيان والبديع، ومنهم أكثر النقاد، كانوا يكتفون بالشطر أو البيت أو البيتين شاهداً على صورة من صور البيان، أو نوع من أنواع البديع.

الأمر الثالث أن القصيدة العربية بطبيعتها مجموعة من مقطوعات تتفق في الوزن والقافية، وتختلف في المعنى والغرض. فإذا أخرجت مقطوعة ما من قصيدة وأدخلتها في أخرى تكون من بحرها ورويها لا تحس نقصاً في الأولى ولا كلالا في الأخرى.

الأمر الرابع أن الشعراء ألزموا أنفسهم أن يكون كل بيت من أبيات القصيدة مستقلا بمعناه عن غيره، وجعلوا من عيوب الشعر (التضمين) وهو أن تتعلق قافية البيت بما بعده على وجه لا يستقل بالإفادة. وربما مدحوا الاستقلال بين شطري البيت؛ فقد روى الجاحظ في البيان عن عمرو بن العلاء أن ثلاثة من الرواة اجتمعوا فقال لهم قائل: أي نصف بيت شعر أحكم وأوجز؟ فقال أحدهم: قول حميد بن ثور: وحسبك داء أن تصح وتسلما. وقال الثاني: بل قول أبي خراش الهذلي:

توكل بالأدنى وإن جلّ ما يمضي.

وقال الثالث: بل قول أبي ذؤيب: وإذا تُرَد إلى قليل تقنع. فقالوا إنه لا يستغني بنفسه، لأن السامع لا يفهم معناه حتى يسمع النصف الأول، والصواب أن يقال قوله:

والدهر ليس بمعتب من يجزع

وكان من أثر استقلال البيت بمعناه أن كثر التقديم والتأخير في أبيات القصيدة حتى لا تجد قصيدة جاهلية يتفق راويان على ترتيب أبياتها.

والأمر الخامس أن الغلبة كانت للرأي القائل بأن الشعر إنما يكون أثره وبلاغه بما فيه من تغير الأوضاع وصور المجاز وأنواع البديع، حتى أن ابن رشد الحفيد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ قال في تلخيص كتاب الشعر لأرسطاليس ما نصه: «والقول (الشعري) إنما يكون مختلفاً أي مغيَّراً عن القول الحقيقي من حيث توضع فيه الأسماء متوافقة في الموازنة والمقدار، وبالأسماء الغريبة، وبغير ذلك من أنواع التغيير. وقد يستدل على أن القول الشعري هو المغير أنه إذا غير القول الحقيقي سمي شعراً أو قولا شعريا ووجد له فعل الشعر. مثال ذلك قول القائل:

ولما قضينا من مِنى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنما صار شعراً لأنه استعمل : أخذنا بأطراف الأحاديث الخ . بدل قوله تحدثنا ومشينا .

وكذلك قوله : بعيدة مهْوى القُرط ، إنما صار شعراً لأنه استعمل هذا القول بدل قوله : طويلة العنق . وكذلك قول الآخر :

يادارُ أين ظباؤكِ اللُّعس قد كان لى فى إنسها أُنس

إنما صار شعراً لأنه أقام الدار مقام الناطق بمخاطبتها ، وأبدل لفظ النساء بالظباء ، وأتى بموافقة الإنس والأنس فى اللفظ . وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة وجدتها بهذه الحال . وما عدا هذه التغيرات فليس فيه من معنى الشعرية إلا الوزن فقط ، والتغيرات تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتشبيه وبالجملة بإخراج القول غير مخرج العادة ، مثل القلب والحذف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب ، ومن السلب إلى الإيجاب ، وبالجملة من المقابل إلى المقابل » .

وما دام الشعر مبنياً على هذه الصور والأشكال ، فلا يكون النظر فيه إلا من جهة البيان والبديع ، وذلك يقتضى النظر فى بعض الأبيات وفى بعض أنواع الكلام .

* * *

لهذه الأمور الخمسة انحصر النقد البيانى عند العرب فى جزء واحد من النقد بمعناه العام عند الفرنج ، وضاقت علوم البلاغة عندهم هذا الضيق الفاحش ، فلم تعالج غير أبيات وفقر من الكلام المنظوم والنثر المسجوع ، وأغفلت القصيدة باعتبارها وحدة لا تتفرق ، والكتابَ باعتباره كلا لا يتجزأ ، ولم تحفل ما ألّف بالنثر المرسل من الكتب والقصص . وجر ذلك إلى أن الشعراء والكتاب أوغلوا فى البديع وتفننوا فى الزخرف ، وأهملوا فن القصص فتركوه لأدباء الشعب ، ولم يعنوا منه إلا بالمقامات لأنها مظهر الصنعة ومحك القدرة ، فحرموا بذلك الأدب العربى فنا كانوا هم بسليقتهم أقدر الناس على التوفر له والافتتان فيه .

ومن ذلك يتضح أن فهم الأقدمين الخاطئ لحقيقة الفن الشعرى والكتابى جر إلى حصر النقد البيانى فى الصور والأشكال ، وهذا الحصر نفسه قد وجه الشعراء والكتاب إلى الاحتفال باللفظ دون المعنى ، وبالصورة قبل الفكرة ، ففات أكثرهم أن روعة الكلام لا تكون بالرونق والأناقة والصنعة وحدها ، وإنما تكون مع ذلك بقوة التعبير عما تكنه الضمائر وتحسه المشاعر ، وبدقة التصور لمختلف الطبائع والعواطف والأخلاق والشهوات والصفات حتى نرى صور أصحابها الحقيقيين أو المتخيَّلين تتحرك وتفعل وتقول على مقتضى الغرائز الثابتة والفطر الأصيلة ؛ وبكشف الغطاء عن طبيعة الشخص بكلمة تجرى على لسانه ، أو حركة تحدث عن يده ، فتكون تلك الكلمة أو الحركة كومضة البرق فى الظلام تنير الأفق بغتة ؛ وببراعة الوصف لمناظر الطبيعة وظواهر الكون حتى نحس فيها الحياة والحركة وندرك ما بينها وبين النفس وانفعالاتها من اتصال وعلاقة ؛ وبشدة التأثير فى الأفئدة حتى تستيقظ فيها رواقد الأهواء والعواطف ، فتطرب النفس أو تغضب ، وتفرح أو تحزن ، وترضى أو تسخط ، وتحب أو تبغض .

ولأن نوابغ الكتاب والشعراء فطنوا أو نبهوا إلى ذلك لكان من هم الناقد أن ينظر فوق ماينظر فى الألفاظ والصور إلى تنسيق المعانى وترتيب الأفكار فى جملة القصيدة أو الخطبة أو المقالة أو القصة ، أو الكلام على العموم سواء أكان شعراً أم كان نثراً ؛ لأن سلامة الجزء المنفصل ، أو بلاغة البيت المنفرد ، لا تدل حتما على سلامة الكل أو على بلاغة القصيدة .

كذلك كان ينبغى للناقد أن ينظر فى الموضوع الذى عالجه الفنان ليرى أبلغ القصد فيما صور ، وأصاب الشاكلة فيما رأى ، وقارب الحقيقة فيما تخيل . وهل استطاع أن يبعث الحياة الطبيعية الحقيقية فى الأشخاص الذين توهمهم ورسمهم . وهل قدر على أن يحرك فى قلوبنا أهواء ساكنة ، وينشئ فى نفوسنا عواطف جديدة ، بما أوحاه أو استدعاه أو رواه من الأمانى والذكريات والحوادث ؟

كذلك كان من عمل الناقد البيانى أن يحلل ما ينشأ فى نفس القارئ لروائع الكتاب والشعراء من العواطف ، وأن يبين كيف يستطيع الكاتب أو الشاعر أن ينشئ هذه العواطف أو يوحيها . ومن ثم كانت المقالات النقدية عند الفرنج عملاً فنياً قائماً بذاته يبوئ أصحابه مقاعد النبوغ والخلود .

وإذا تدبرت وظيفة الناقد من بعض ما ذكرته تبينت لك العلاقة بين النقد وعلم النفس ، فإن موضوعه تحليل الأحاسيس والعواطف ، والبحث عن طبيعة الجمال وما يصدر عنه من الانفعالات والأهواء ،

ولذلك لم يصبح النقد عن الفرنج فناً مستقلا له قواعده ومذاهبه إلا في القرن التاسع عشر بعد أن ارتقى علم النفس وانتشر وازدهر. ومنذ ذلك الحين تابع رقيه حتى بلغ أوجه وأدرك تمامه، فأثر في فنون الأدب أبلغ التأثير، وعدل في بعض أنواعها كل التعديل

فإذا أضفت إلى الأمور الخمسة التي تقدمت، هذا الأمر السادس وهو جهل القدماء بعلم النفس كما كان يجهله غيرهم، اجتمعت لديك الأسباب التي أدت إلى ضعف النقد عند العرب، والنتائج التي أحدثت هذا النقص البادي في تاريخ الأدب

أحمد حسن الزيات

عود إلى حديث الإنسانية!

[إلى أخي الأستاذ علي الطنطاوي]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كل ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية الفاسدة الشديدة الفساد الآن تحمل كثيرين على عدم الثقة بالإنسان وسوء الاعتقاد فيه، فليست قصتك التي أهديتها إلى في العدد الماضي يا أخي شيئاً مذكوراً بجوار القصص التي تمثلها الجرائم السياسية الكبرى التي يعرضها شيوخ السياسة على مسرح الأرض، ولا بجوار المخزاة الدامية المجرمة التي تمثلها الصهيونية، وتنصرها الولايات المتحدة الأمريكية! — تلك التي كانت أمل العالم فطواها الشيطان في جناحه الأسود فيما طوى من آمال السلام والخير — وتغضي عنها الامبراطورية البريطانية إغضاء الذليل الضعيف، وهي التي خرجت منصورة من حرب كادت تودي بها، أعلنتها، وكان من أسباب إعلانها لها الانتصار لليهودية المضطهدة على يد النازية!

أجل، ليست المسألة في الحكم على الإنسانية بأنها للخير أو للبوار مسألة قسوة فرد أو جريمة شخص، فإن فساد الأفراد وبخاصة في عصور الانحطاط، يكون من الكثرة بحيث لا يحصيه العاد. ولكن هل معنى ذلك أن نستسلم للواقع السيء ونحطم عقائدنا في الخير والصلاح ونلقي سلاح كفاحنا لها؟

وقد كانت صيحتي « أومن بالإنسان » في إبان الحرب الأخيرة رداً لهجوم عنيف على قلبي من موجات التشاؤم والسخط والتبرم من ذلك المجتمع الإنساني الذي اشتمل بالحقد والقسوة والكفر بالقيم العليا للحياة الإنسانية فدمر كل شيء، وكفر بكل شيء لأنه فارغ الفؤاد من العقائد السامية في الإنسان وفي الله خالق هذا الإنسان ومكرمه!

وكانت الفكرة التي تسلسل الحديث بها في هذا الموضوع إنما هي فرار بنفسي وعقائدها السامية في حياتي الشخصية وحياة النوع الذي أنتسب إليه.

وعندما يطم طوفان الفساد لا تجد النفس عاصماً منه إلا باللجوء إلى صخرة الإيمان بتلك القيم العليا التي تعمر الوجود، ولا تطمئن النفس إلى الحياة إلا إذا ظلت لهذه القيم قداستها وهيبتها. فاذا رأيت المدن والمعابد والشيوخ والأطفال والعجزة والمعاهد، وكل ما قامت عليه الحضارة الإنسانية من القداسات والحرمات تدكه يد الحرب المجنونة الفاجرة، فلي العذر أن ألتمس لنفسي ولمن شاء من الناس أفقاً أرى فيه تأويل هذه الظواهر الفاسدة والجرائم المنكرة كي أوفق بين عقائدي الدينية في إرادة الله بالناس الخير مهما بدا هذا الخير ملفوفاً بالشر، وبين سير الحياة بالأحياء ...

وإلا فقد عرضت نفسي لما تعرض له بعض من كتب إلى منذ حين يقول إن الحياة الإنسانية لغير غاية، وإن الله — تعالى — قد فاتت عليه الغاية من خلق هذا النوع فقد خلقهم لعبادته، فلم يعبده منهم إلا الأقل!

على أن كل ما ضاعف في الناس فعل الشر وسلبهم الاعتقاد في الخير هو ذلك اليأس من الخير، وذلك الاعتقاد بأن الشر هو الغالب على الطبع البشري، وذيوع هذا الاعتقاد في هؤلاء المحاربين العصريين، هو الذي جعلهم يحاربون بروح التدمير وعدم الإبقاء على شيء، وما دامت الحياة للشر فليخبطوا فيه خبط عشواء على نحو بيت المعري:

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم!

أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن نؤمن بأن هذا النوع الإنساني يمكن الإقلال من شره، وإقامة حياته على مثل الدولة الإسلامية الأولى، أو على مثل دول سكان الشمال من أوروبا الحالية، وعندئذ نجد في أنفسنا العزائم على الجهاد والصبر والكفاح في هذا السبيل حتى نصل أو نقارب بحسب الطاقة وبحسب قوانين الدنيا ... وعندئذ يستمر سير الحضارة والإصلاح مطرداً ويظل

الخير له دولة فى الحياة كما أن للشر دولة ، ولا ضير على العقائد أن يبقى من الشر بقايا ما دام الخير هو القانون الحبيب للنفس تلوذ به وتعتصم بعواصمه عند المواقف الفاصلة ... وإما أن نكفر بهذا النوع ونهدر قيمه الخلقية ، ونفقد آمالنا فى أنه مخلوق لغايات كريمة ، ولا نستمع لوصايا الأديان القويمة بالبر وحسن الخلق والدعوة للخير والغضب على الشر ، وعندئذ فلنخلع قناع المدنية عن وجوهنا وجوه الذئاب والخنازير والنمور ، ولنفضح كل مواضعات النفاق الاجتماعى ، ولنعلن بصراحة أن وصايا الأديان أخاديع أو أغلوطات عظيمة من عبقريات التاريخ الكاذب المدلس ، وأن الإنسانية يجب أن تتخذ لها فلسفات فردية لكل فرد فى الأمة ، ولكل أمة فى الأمم يرعى فيها الفرد مصلحته الخاصة ، والأمة مصلحتها الذاتية ، وتسعى كل أمة أن تكون أربى من غيرها ، لأنه لا رحم ولا نسب بينها وبين غيرها ، وإنما هى قطعان وحيوانات بشرية تسعى « لتعيش » فى أضيق حيز ، وهو حيز « الذاتية » .

وأليست هذه الحياة التى وصفنا على هذا الفرض هى الحياة التى تحياها الأمم وتشقى بها كل أمة وتدمر كل حضارة ؟ ! فإذا أردنا أن نفر منها ، فلماذا لا نؤمن بفلسفة تناقضها وتحاربها ؟ ! وهل هذه الفلسفة إلا أن « نؤمن بالإنسانية الواحدة » . وأنها مخلوقة لغايات عليا ليست هذا النزاع على الذهب الأصفر والذهب الأسود والفحم الأسود والفحم الأبيض » وإنما هى البحث عن كلمات الله فى الطبيعة بحث طالب « العلم » لا طالب « الفائدة » المادية وحدها ؟ .

وأليست هذه الغاية لو تحققت جديرة بأن تشعر الناس جميعا أنهم نوع واحد غريب الوضع فى هذا الكون ! لأنه وحده يفتح أبواب الطبيعة بابا فبابا ، ويتدرج فى تسخير قواها درجة درجة حتى وضع يده فى منابعها ، وحطم أسوار « الذرة » التى هى وحدة بناء الكون المادى .

ذلك هو « الوضع الأصيل » للانسانية الذى يجب أن يرصدها منه الراصدون ليعلموا أى كائن هذا الإنسان الذى يحملونه فى أجسادهم ويبادلونه ما صح وما فسد من شأنه وشئونهم !

أما أن يرصده راصد فى « ولد عاق » ، أو « وحش الاسكندرية » أو « سفاح باريس » الأخير أو غير أولئك من الثمرات الإنسانية المعطوبة الملوثة التى سقطت وتلوثت لضعف روابطها بفروع الشجرة الإنسانية ، ثم يحكم عليه كله لذلك ، فتلك نظرة سطحية جزئية لا تليق بمن يجعل عقله ميزان حكم على الكون ومرآة رصد لأعاجيبه التى لا تنفد فى حرب الخير والشر ، وعراك الصلاح والفساد ، وصراع الموت والحياة ، وقذف الحق على الباطل !

وإنى أسأل أخى الطنطاوى : لماذا يفقد ثقته وإيمانه بالإنسانية لأجل مثل من العقوق يقابله أمثال من البر بالآباء ؟ هل جميع الأبناء مثل هذا الابن العاق ؟ ولماذا تألم قلبك من هذا المثل الشرير ؟ أليس لأن قلبك ينكره ؟ إذاً فى قلوب الناس نوع خير ينكر الشر ويضربه مثلا ، ويكتبه قصة يشنع بها ويسمع بصاحبها ، ويجد فى قلوب الناس صدى لألم قلبه ، لأن « البر لا يبلى » . وما دام فى الإنسانية خير وشر فلم نيأس منها ونزرى بقضيتها ؟ لماذا نحرق الحقل كله لنتخلص من الزوان ؟ !

إن الأولى بنا أن نعتقد أن الإنسانية كحقل من النبات ، الأصل فيه أن ينبت أكثره نباتا حسنا ، ويؤتى أكله وثمره إذا تعهدناه بالسقى والرعاية والحراسة من الآفات والحشرات التى تعطبه وتفسده وتجعل أكثره ينبت نباتا سيئا . ولا بد أن يكون فيه المعوج بالطبيعة ولكنه لا يكون الأكثر فى العادة .

ولن يفقد الزارع أمله من الزرع إذا ما خانه حظه فى موسم من المواسم فييأس ويقول : إن هذا النوع من الزرع ملعون ! ولن أزرعه ، إلا إذا كان أحمق .

ونحن الذين نعلم أن كل مولود يولد على الفطرة ثم تلحقه عوامل التربية والبيئة فيتكيف بها ينبغى لنا أن نتربص ونتوجه بكل جهود الإصلاح إلى قلوب الطفولة منطقة النمو الإنسانى ، ونجتهد أن تنبت نباتا طيبا وعلى الله الباقى !

ذلك حديث أذكر به صديقى بقضية الإنسانية والإيمان بها ، وآثار ذلك وضده من النواحى العملية والاجتماعية .

غير أن للقضية وضعا آخر من الناحية الفلسفية قد لخصته فى تلك العبارة التى لا شك رآها الصديق فى كتابى عن القضية وهى :

« أومن بالإنسان لأومن بالكون ورب الكون ؟ فلن يؤمن الفرد الإنسانى بهما إن لم يؤمن بنوعه ؛ لأن عقل الإنسان هو المنظار الذى ندركها به ، فإن أهدرنا قيمة الإنسان أهدرنا

عقله ، فلا يبقى ما ندرك به كوننا وربنا ! ! ويعيش أكثرنا كما يعيشون الآن ، تضطرب بهم مجهولات الكون ومعلوماته كغرقى طافين على أكف الأمواج ، لا يعقلون شيئاً ولا يؤمنون بالكون والنفس ولا بربهما ، وإنما يعيشون فى ذهول وبلبلة وشك ، ثم يمضون إلى ظلمات القبور » .

تلك هى القضية وهى أشبه « بمعادلة رياضية » وهى عندى القضية الفكرية الأولى فى الدين والعلم والفلسفة .

فهل ترانى أخطأت ؟

عبد المنعم خلاف

تاريخ جحا ...

جحا التركي

للأستاذ كامل كيلاني

— ٣ —

الأستاذ نصر الدين

ولد الأستاذ نصر الدين — كما أسلفنا — فى « سيورى حصار » إحدى بلاد الأناضول ، ومات فى « آق شهر » (البلد الأبيض) ونشأ فلاحاً ذكياً يؤثر أن يحطب بيده ويعيش من كد يمينه .

وكان سخى اليد كريم النفس لا يقصر فى واجب ضيف ولا يرد عائذاً قصد إلى داره من الغرباء والفقراء .

***

فإذا حذفنا أسماء البلدان فما ندرى : أى الجحوين به ذلكم الوصف أكثر التصاقاً ، وعلى أيهما كان أكثر انطباقاً ، ولكن من يدرى ؟ فإن قدرة الله تخلق من الشبيه أربعين ، كما تخلق من الشخوص الجحوية أربعين .

كان الأستاذ نصر الدين — فيما يقول مؤرخوه — أمة وحده : كان فيما يتمثله بعض مؤرخى الأتراك فيلسوفاً حكيما يمزج الفكاهة بالجد ، ويعرف كيف يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وكان آية من آيات الذكاء وخفة الروح .

وكثيراً ما تخللت نصائحه طرائف عالية من الدعابات الحلوة والنكات المستعذبة واللطائف المستملحة ، ولم يكن كما يتخيله العامة مهرجا ولا متبذلا ولا أبله ولا مخبولا ، ولا — كما توهموه — عاجزا عن التفريق بين الخير والشر .

وكيف يكون ذلك وقد شهد علماء الأناضول : أنه كان لهم فى العلم إماما يقتدى به ويهتدى ، وعالما ثبتا ، وقطبا من أقطاب الحكمة والفلسفة .

قالوا :

ولا أدل على ذلك من ذيوع ترجمته وانتشار أخباره وطرائفه المبدعة فى بلاد الدنيا كلها ، عصراً بعد عصر ، وجيلا بعد جيل حتى وصلت إلى أيدينا متجددة الروعة دون أن تبلى جدتها ، أو تخلق ديباجتها .

وكان يحلو له السياحة والتجوال مشيا على قدميه . ولم يعرف عنه ميل إلى التزلف ، ولا نزوع إلى الخبث ، ولم تؤثر دعابته ونكاته فى مكانته الرفيعة بين معاصريه ، ولم تقلل من احترام الأهلين له ، ومحبتهم إياه .

إلى هنا ينتهى الوصف الذى يصدق على الجحوين : الشيخ أبى الغصين دجين بن ثابت ، والأستاذ نصر الدين أفندى . ثم ينفرد ثانيهما بما يأتى :

كان تاريخه الحربى والسياسى — فيما يقولون — حافلا بجلائل الأعمال . وقد ختم بسفارة رسمية سياسية فى بلاد الكرد (كردستان) فنجح فيها أيما نجاح .

* * *

ويدل ما بقى فى أيدينا من آثاره على أنه لقى من ضروب الامتحان ، وتعرض لأزمات كثيرة لقيها بثبات وثقة خليقين بأمثاله من كبار النفوس .

ومازال يعلو فى المناصب ويسفل ، ويلقى من أسباب السخط والرضى — تبعاً لتقلب الأهواء — ما يلقاه أمثاله من الأحرار الصابرين .

وقد ولى القضاء فى آق شهر (البلد الأبيض) وملحقاتها . وكان يخطب فى « سيورى حصار » . وقد عرف عنه أنه كان

جريئاً لا يتهيب أن يدعو الأمراء والولاة والحكام إلى طاعة الله والتمسك بأهداب الدين، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.

وكان يؤم الناس فى ولايات «أنقرة» و«بورصة» و«قونيه» وما إليها من البلدان وأقرأ ابن السلطان كتاب الهداية ووقفه على دقائقه وجلا له غوامضه.

ولن يؤخذ هذا الرجل الصالح بما فرط منه من زلات فى جن نشاطه ومستهل فتوته. فقد أقلع عنها وتم له النسك بعد اكتمال عقله ورجولته وقد ختم حياته بالوعظ وتدريس علوم الدين.

وقد أهلته شجاعته وحكمته ودعابته، وما تحلى به من مواهب وميزات باهرة، وما حباه الله به من قدرة على اكتناه دقائق الفن والنفاذ إلى مغالق العلم، وما ذاع بين معاصريه من شهرة مستفيضة بين علماء زمنه وحكماء عصره، إلى الظفر بأسمى المناصب، وأتاحت له المثول فى حضرة «تيمورلنك» والاتصال به. ومكنت له تلك الأسباب مجتمعة من النجاح فيما هدف له من تلطيف جوره وكف أذاه عن الناس وتخليصهم من كثير من مظالمه.

قالوا: وساعدته على ذلك بديهة حاضرة وكياسة نادرة، ونكتة مستعذبة ودعابة محببة.

وإن مرتاد الأناضول ليدهشه ما يراه من اعتقاد الناس فيه؛ فهو عند الأهلين: من أولياء الله المقربين. وهم يؤمنون بأن زيارة قبره تجلب البركة والخير العميم على زائريه. فإذا شك إنسان فى شىء من هذا أصابه أذى أو مكروه جزاء جحوده ونكرانه.

وللأهلين فى ذلك الباب طرائف كثيرة، منها:

«أن مركبة مرت أمام قبره، وعليها هودج معمد (أعنى: ذا أعمدة). وكان يستقل الهودج أسرة فيها شاب لا يدين بالخرافات. فلم يشأ أن يجرى على عادة الأهلين الذين تفرض عليهم التقاليد أن يترجلوا قبل أن يبلغوا قبره، وأن يقرأوا الفاتحة أمامه باسمين وإلا عرضوا أنفسهم لمساءة وشيكة، وربما حلت بهم كارثة عاجلة لا قبل لهم بها، ولا حيلة لهم فى دفعها.

قالوا: وأصر الشاب على أن يستهين بهذا التقليد الصالح الذى جرت به العادة هناك. فماذا حدث؟

لم يكد الهودج يسير خطوات قليلة حتى اصطدم فيما يزعمون بفرع شجرة ممدود، فجفلت الخيل وقذفت بأفراد الأسرة على الأرض، وتمزقت سجوف الهودج ورفارفه.

فلا غرو إذا ثبت اعتقاد الأهلين فى بركة الشيخ وقال قائلهم مباهياً:

منذا الذى يجرؤ على احتقار شيخنا، أو الاستخفاف به، بعد اليوم؟

وقد علق على هذه القصة بعض أفاضل الباحثين من الترك، فقال:

«ولا ضير من أمثال هذا الاعتقاد، فإن الاستنجاد بروحانية الأخيار أفضل وأجدى مما يرتكبه المنكرون الجاحدون من شرور وحماقات.

قالوا إن عالماً متفقهاً فى دينه، سأل زوجته: لماذا لم تكنس البيت؟ فقالت له «ذهبت إلى أبى اليوم، ولم أعد إلا ساعة الغروب» فقال: «لقد مرت ساعتان على ذلك فما بالك لم تكنسيه؟» فصاحت فيه متعجبة: كيف تقول هذا؟ ألا تعلم أن الكنس يحرم متى جن الليل؟» فضرب الرجل كفا على كف وقال من أين لك هذا العلم أيتها البلهاء؟ أتحبين أن تعلميني ما أدرسه للناس كل يوم فى المسجد من شئون الحرام والحلال؟» فقالت له: «لا شأن لى بعلمك، فكذلك أخبرتنى أمى وجدتى، وعمتى وخالتى، وأختى وجارتى، وعلى ذلك الرأى أجمع كل من عرفت»

فلما اشتدت اللجاجة بينهما قالت له الزوجة متبرمة: «اكنس أنت إذا شئت ما دمت لا ترى فى ذلك حرجا»

فأمسك الشيخ بالمكنسة وراح يكنس هازئاً برأى صاحبته متحدياً إياها بين لحظة وأخرى. ولم يكد ينتهى من ذلك حتى لدغته عقرب فصاح مغموماً يقول:

«لعله علم وترك»

لعلنا نتعلم من هذه القصة ما يجب على كل رجل من الأذعان لرأى المرأة — ولو كان باطلا وطاعته طاعة عمياء.

ومن عادة الأهلين السذج فى «آق شهر» أن ينظموا الأشعار فى أعراسهم بعد أن يذهبوا إلى قبر الأستاذ نصر الدين، ثم يوجهوا الدعوة إليه، وهذا نصها:

«أحضر شيوخك، وأحضر من تحب من أصفيائك العلماء».

وليس يجرؤ أحد منهم على مخالفة هذا التقليد: وعندهم:

أن الحياة الزوجية لن تزدهر بين العروسين ، ولن يبارك فيها الله إذا غفلوا عن تنفيذ هذا التقليد .

ولا يقتصر المحتفلون على ذلـكم ، بل يدعون حارس قبره ليكسب حفلتهم بهجة وحبورا بما يقصه عليهم من ماجنه وطرائفه

حفيد نصر الدين

ومن طريف ما يروى أن بعض حفدته قدم إلى الآستانة مع أسرته ، في عهد السلطان مراد الثالث ، في القرن العاشر الهجري (٩٨٢ إلى ١٠٠٣ هـ) ، ملتمساً من وزارة الأوقاف أن تقرر له إعانة شهرية يسيرة من المال تمكنه من شراء ما يتبلغ به من القوت . ولم يجد حفيد نصر الدين شيئاً يربط إليه دابته . ثم لم يلبث أن لمحت عيناه طبلا كبيراً أمام باب الوزارة ، يستخدمونه لتنظيم المواعيد ، وتوقيت الحضور والانصراف ، وما إلى ذلك مما تستخدم فيه الأجراس عادة . فشد صاحبنا دابته إلى ذلـكم الطبل بعد أن ضاقت به الحيل فى الاهتداء إلى غيره .

وكان فى ساحة الوزارة — جمهرة من البغال التى تمدها الدولة — كل عام — للذهاب بما تحمله من مال ورجال إلى الحج . ولم تـكد الدابة تستقر حتى ركلت الطبل برجلها — تعمدا أو اتفاقاً — فأحدثت ضجة وضوضاء . فأجفلت البغال وهربت من الذعر . وشاع الهرج والمرج . وانزعج ولاة الأمر ، وبحثوا عن مصدر الصخب ثم ما لبثوا أن اهتدوا إلى أن حفيد نصر الدين هو مصدر الضجة كلها .

وقد كانت تلـكم الحادثة وحدها كافية للتعريف بنفسه ، فأغنتهم عن التثبت من بنوته ، بعد أن رأوا فى تصرفه ما يدل على أصالته ، وصحة نسبته .

تحقيقــات

١ — قبر نصر الدين :

ولا بأس من وقفة قصيرة نستعرض فيها ما انتهى إليه بعض الباحثين فى تاريخ الأستاذ نصر الدين إذ يقول :

« ونحن بما انتهت إليه تحقيقاتنا العلمية فى بلاد الأناضول وقفنا على كتاب : « السياحة إلى قونية » الذى أهداه إلينا أحد الأفاضل إخواننا (ضيا بك) .

وباطلاعنا على هذه السياحة وجدنا أن للمرحوم قبرا فى مقبرة « آق شهر » مكتوبا على شاهدته هذه الجملة :

هذه التربة . المرحوم المغفور له المحتاج إلى رحمة ربه الغفور نصر الدين أفندى روحنا (إلى روحه) فاتحة ٣٨٦ .

٢ — تاريخ وفاته :

ثم يقول :

وقد استثار هذا التاريخ دهشتنا لأن نصر الدين لم يمت فى ذلك التاريخ ، واستدللنا على أنه محرف ، وأن الأرقام قد كتبت معكوسة ، وصحتها ٦٨٣ . وقد تبينت صحة ذلك التاريخ من التحقيق المحلى الذى قمت به لأن المرحوم من رجال السلطان أورخان . وقد حكمنا من الشواهد والملابسات أن ما وصلنا إليه من نتيجة هو الصواب لا ذلك الذى كتبوه على شاهدة قبره خطأ . وقد تبين لنا من ذلك الخطأ فى التاريخ المثبت على القبر ومن كتابة أرقامه أنها مقلوبة .

ومن عجائب الاتفاق وغرائب الأستاذ أن يقلب تاريخ وفاته على قبره أيضا ، وكأنما تعمد كاتبه أن يقلبه ليدل على أن النكتة لا تفارق صاحبنا حيا وميتا .

إلى أن يقول :

« وقد انتهت تحقيقاتنا إلى أنه كان — رحمه الله — قد ظهر تقريبا فى عهد السـلطان أورخان ، وامتدت حياته إلى عصر السلطان « بيلدرم بايزيد » أى « الصاعقة بايزيد » .

ومعنى هذا أنه عاش فى أوائل القرن السابع . وأنه عاش ستين عاما أو يزيد ، إلى أن توفى سنة ٦٨٣ هـ كما يدل على ذلك لوح القبر الذى دفن فيه » .

وقد قبست جريدة صدى الأجراس (جينفر اقلى تاتار) الـكلمة التالية من كتاب تاريخ النكات (لطائف نويس) وقد ألفه فى جزءين عن لطائف نصر الدين ، قالت :

كان الأستاذ من رجال المرحوم السلطان بيلدرم بايزيد .

٣ — صحبة تيمور لنك :

فإذا عن لنا أن نترفق فى مناقشة أقوال هذا المحقق ، ونتفهم ما انتهت إليــه تحقيقاته العلمية ، تعذر علينا أن نجاريه فيما انتهى إليه .

فإذا افترضنا أن التاريخ مقلوب — كما ذهب إلى ذلك صاحبنا وتابعه فى رأيه كل من أظفرنا الحظ بقراءة بحوثهم ، فكيف نعلل ما حدثنا به ذلكم الباحث نفسه وما حدثنا به جمهور المؤرخين من صحبته للباطش السفاح الطاغية تيمور لنك .

كيف نعلل ذلكم ، وقد ولد « تيمور لنك » بمدينة « كيش » — فيما تعلمون فى القرن الثامن ، إذا صح أن « نصر الدين » مات فى القرن السابع .

إذا صح أن تيمورلنك ولد عام ٧٣٧ هـ فيما يقول التاريخ وأن نصر الدين مات عام ٦٨٣ هـ فكيف التقيا ؟ وكيف ونصر الدين لم يدرك مولد الطاغية ، بله انتصاره على بايزيد الصاعقة الذى تم له — فيما تعلمون وأعلم — عام ٨٠٥ هـ ١٤٠٢ م بل كيف لقى « أورخان » وهو لم يل الإمارة إلا عام ٧٢٦ هـ ، أى بعد وفاة « نصر الدين » بثلاثة وأربعين عاما .

لقد مات « أورخان » عام ٧٦١ هـ ، ثم خلفه ابنه مراد الأول (من ٧٦١ – ٧٩٢ هـ) ثم خلفه بايزيد الأول (٧٩٢ — ٨٠٣) وانتهى أمره فى عام ٨٠٥ هـ .

كيف نعلل ذلكم كله وأخباره مستفيضة مع بايزيد وتيمورلنك !

قالوا : إن جحا بطل محاضراتنا ، سمع فقيها يتلو الآية هكذا « فخر عليهم السقف من تحتهم » فانتفض جحا غاضبا ، وصرخ فيه متعجبا . « إذا فاتك النص يا هذا فلا يفوتنك الذوق ! كيف استقام فى ذهنك أن يسقط عليهم السقف من تحت ؟ قل من فوقهم لا أبالك ؟

إحدى اثنتين أيها السادة :

إما أن نأخذ بالتاريخ المقلوب ، كما أخذ ذلكم المحقق ، فننكر صلة نصر الدين ببايزيد بله تيمور لنك !

وإما أن نأخذ برواية من يثبتون لنا مؤكدين أنه صحب بايزيد كما صحب تيمورلنك من بعده ، فننكر صحة التاريخ المكتوب على القبر طردا وعكسا ، ونسقط رأى أولئكم المحققين أثباتا كانوا أم غير أثبات .

فإن كان لا بد من التشبث بالأرقام الثلاثة التى يتألف منها التاريخ المثبت على جدثه وهى ٣٦٨ ، فليس لنا مندوحة عن نقل رقم الثمانية من الطرف الأيمن إلى الطرف الأيسر ، أعنى : من رقم الآحاد إلى رقم المئات فتصبح حينئذ ٨٣٦ هـ . وهذا التاريخ — على أى حال — فى حدود الممكنات ، إذا استحال علينا الأخذ بالتاريخين السالفين طردا وعكسا . فإذا ابينا إلا الاسترسال فى تحوير الأرقام وتقليبها على كل وجوهها لم يبق أمامنا إلا تحوير واحد ، هو آخر ما يتبقى لمن يحلو له أن يتشبث بها ، لم يبق إلا تاريخ ٨٦٣ هـ ، وهو كما ترون : أبعد احتمالا من سابقه ، وإن لم يكن ممعنا فى الاستحالة إمعان التاريخ المثبت على القبر مثبتا ومقلوبا ، هذا إذا تسمحنا فى عمره بأنه لم يعش إلا ستين عاما أو قريبا كما يقول القائلون .

فلو أنه عاش مائة عام مثلا لما استحال على الباحث أن يأخذ بهذا التاريخ . على أن خير الأمور الوسط ، والاعتدال ، كما يقولون ، هو : الحسنة بين السيئتين .

من بدائع ما يروى من الطرف فى هذا الباب أن متحدثا ممن وهبهم الله — إلى نعمة الغباء والغفلة — عجمة اللسان ، قال : « خسن وخسين بنات معاوية بن عفان » .

فصاح فيه أحد السامعين متعجبا :

قل لى بأى خطأ فى هذه الجملة القصيرة أبدأ تصويبه :

فأول الأشياء هما : « حسن » و « حسين » وليسا « خسنا » ولا « خسينا » :

والثانى أنهما ليسا من النساء بل من الرجال .

والثالث أنهما ليسا جمعاً بل مثنى .

والرابع أنهما ولدان لا بنتان ولا بنات .

والخامس أن أباهما على بن أبى طالب لا معاوية .

والسادس أن معاوية بن أبى سفيان لا ابن عفان .

والسابع أن ابن عفان هو عثمان لا معاويه »

وما أكثر ما يتمثل الباحث فى تاريخ جحا ، هذه الطرفة الرائعة كلما عرض لمناقشة الكثير من أقوال من تصدوا للحديث عنه ، فى أكثر المناسبات ، على اختلاف اللغات .

كامل كيلانى

من وحي الصوم:

رمضان عند الأدباء..

للأستاذ محمد رجب البيومى

يتمتع شهر رمضان المبارك بمنزلة طيبة فى نفوس الكثرة الغالبة من المسلمين ، فأنت تراه ضيفاً محبوباً يُستقبل حين قدومه بشتى مظاهر المحبة والابتهاج ، ويُودّع حين رحيله بدموع الحسرة والالتياع . وإذا كنا نسمع فى أخبار الماضين من رجال السلف الصالح رضى الله عنهم أنهم كانوا يعزون أنفسهم فى الليالى الأخيرة من رمضان ، فإننا لا نزال نرى بأعيننا الفسقة والعصاة من المؤمنين يجترحون السيئات ويقترفون الموبقات ، حتى إذا وجدوا أنفسهم فى حرم رمضان ضجت ألسنتهم بالتهليل والتكبير، وارتعدت فرائصهم من خشية الله ، ولزموا حلقات الدروس فى المساجد يستنشقون روائح الجنة من نسمات هذا الشهر المبارك !

ولكن فريقاً من الأدباء — عفا الله عنهم — قد أخذوا يغازلون شهر الصيام مغازلة شكا منها إلى ربه ، ثم تحولت المغازلة على ممر الأيام إلى عداء مستحكم ، فبعد أن كان الشاعر لا يزيد على قوله :

نُبئتُ أن فتاة جئت أخطبها
عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

أو قوله :

أتأمرنى بالصوم لا درّ درها وفى القبر صوم يا أميم طويل

بعد أن كان لا يزيد على ذلك وجدنا الأمر قد استحال فجأة إلى هجو لاذع ، وسب مبرح ، لا نظن إلا أن الله عز وجل سينتقم للظالم فيه من المظلوم يوم يقوم الناس لرب العالمين

وأول من أعلن هذه الحرب الظالمة — فيما نعلم — هو هذا الأعرابى القدم الذى روى ابن قتيبة فى عيون الأخبار قصته فيقول :

« قدم أعرابى على ابن عم له بالحضر ، فأدركه شهر رمضان ، فقيل له : يا أبا عمرو ، لقد أتاك شهر رمضان ! قال : وما شهر رمضان ؟ قالوا : الإمساك عن الطعام ! قال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا : بل بالنهار ؛ قال : أفيرضون بدلا من الشهر ؟ قالوا : لا ؛ قال : فإن لم أصم فعلوا ما ذا ؟ قالوا : تُضرب وتحبس ... فصام أياماً فلم يصبر ، فارتحل عنهم إلى غيرهم وجعل ينشد :

يقول بنو عمى وقد زرت مُصرهم تهيأ أبا عمرو لشهر صيام
فقلت لهم هاتوا جرابى ومزودى سلام عليكم فاذهبوا بسلام
فبادرت أرضا ليس فيها مسيطر علىّ ولا مناع أكل طعام »

كانت هذه القصة بذرة سيئة تولدت منها تلك الحملة الطائشة التى شنها الأدباء على رمضان . ومهما يكن من شىء ، فقد حركت ما سكن فى النفوس ، وأطلقتْ ما حبس فى الصدور ، فخرج الأدب بصفقة رابحة كان ضحيتها رمضان المسكين ! ولعل عزاءه فى ذلك قول الله عز وجل : « والشعراء يتبعهم الغاوون » ! ...

على أن كثيراً من الأدباء كانوا أقدر على ضبط ألسنتهم من إخوانهم الذين تورطوا فى معاداة هذا الشهر العظيم ، فنحن نقرأ فى تاريخ البحترى مثلا أنه كان ضائق الصدر برمضان ، متبرم النفس بطوله ، وتلمس ذلك فى شعره ، فلا نجد إلا متفرقات يسيرة لا تطفئ أواما ، ولا تبل غليلا ، كأن يقول :

فتزود من شعبان إن وراءه شهراً سيمنعك الرحيق السلسلا

ثم يكرر هذا المعنى مرة وثانية وثالثة ، فإذا هاج صبره بعد مرور سبعة وعشرين من عمر رمضان لم يزد على أن يطلب من الله عز وجل أن يجعل الشهر كله ليلا حتى لا يجد النهار الذى يصوم فيه عن الطعام والشراب ، وفى ذلك يقول :

قد مضت سبعة وعشر وعشر ما نذوق اللذات إلا لماما
ما على الليل لو أقام علينا أو رانا من الصيام صياما

أما ابن الرومى ، فقد أطلق العنان لقريحته الوقادة ، وانهال على رمضان بسياطه المحرقة حتى مزق جلده ، وشوه أديمه ، وتعليل ذلك واضح يسير ، فالبحترى على رغم ما له من جاه عريض لدى الخلفاء والرؤساء كان نكساً رعديداً يقول الهجاء ، فيقبض يده على قلبه ويُرسل وراء شعره العيون والأرصاد يتجسسون لدى المهجو ، ويخبرونه بموقع هجائه من نفسه ، فإن لم يُلق له بالا حمد الله على السلامة . وإن كانت الأخرى أخذ يتزلف ويتوسل ويُحبّر النابغيات الطويلة فى الاعتذار ، وحسبك أن تعلم أنه حين قال فى قصيدته القافية

ولم أر كالدنيا حليلة صاحب   محب متى تحسن بعينيه تطلق
تراها عيانا وهي صنعة واحد   فتحسبها صنعي حكيم وأخرق

حين قال ذلك شنع عليه أحد العامة بأنه ثنوى، فخاف على نفسه وقال لابنه أبي الغوث: قم بنا نخرج من بغداد خروجاً نأمن على أنفسنا فيه، ثم خرج ولم يعد، فشخص نفسيته ضعيفة خائرة كالبحترى لا يجد الشجاعة الكافية التي يذم بها رمضان على رءوس الأشهاد. ولا كذلك ابن الرومي، فقد كان جسور القلب حاد اللسان يسوق الهجاء في الوزراء وذوى الشأن في الدولة، ثم يتزايد ويتسع فيه دون مبالاة أو اكتراث مما أدى إلى حتفه في النهاية، فمات ولم يستمتع بخاطره، ولم ينزح ركية فكره — كما قال الصولي — فإذا كان هذا شأنه، فغير كثير عليه أن يسلط لسانه على رمضان معبراً عما يختلج في نفسه أصدق تعبير. والحق أن هذه ميزة ابن الرومي يصدر عن طبعه وينقل عن خاطره مهما جلب عليه ذلك من الشرور والويلات، والجنون فنون

بدأ ابن الرومي حملته بتأدب ملموس، فلم يشأ أن يهجم بادئ ذي بدء بما هجم به أخيراً من الذم والقدح، بل اكتفى بإعلان تبرمه بطوله الممتد، وود لو مر كالسحاب، وكان جميعه كيوم أو بعض يوم، وقصارى حيلته أن يدعو عليه، وأن يرحب بأيام الفطر اللذيذة فيقول:

إذا بركت في صوم لقوم   دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك في شهر طويل   يطاول يومه يوم الحساب
فليت الشهر فيه كان يوماً   ومر شهاره مر السحاب
فلا أهلا بمانع كل خير   وأهلا بالطعام وبالشراب

ويظهر أن ابن الرومي قد وجد أبياته صادفت رواجاً محموداً لدى من يشاركونه عواطفه وميوله — وكثير ما هم — فهجم على شهر الصيام مرة أخرى ولكن بلسان أحد، ولهجة أعنف، وقسوة أشد، فود بجدع الأنف لو انتهى قبل أن يبدأ، وأعلن أن بركة هذا الشهر في طوله لا في خيره، وزاد بأن تنازل عن الأجر الذي أعده الله له جزاء صومه؛ فهو يقول:

شهر الصيام مبارك لكنما   جعلت لنا بركاته في طوله
من كان يألفه فليت خروجه
مني — بجدع الأنف — قبل دخوله
إني ليعجبني تمام هلاله   وأسر بعد تمامه بنحوله
لا أستثيب على قبول صيامه   حسبي تصرمه ثواب قبوله

وجائز جداً أن يكون ابن الرومي قد عانى صوم رمضان في أوقات تلفحها حرارة الصيف كما نعانيه في أوقاتنا هذه، فهو لا يكتفي بما قدمنا بل يعيد الهجوم ثالثة ورابعة، غير تارك بعده مجالا لقائل، وليت شعري ماذا ننتظر منه بعد أن يقول

شهر الصيام وإن عظمت حرمته
شهر طويل ثقيل الظل والحركه
أذمه غير وقت فيه أحمده   منذ العشاء إلى أن تصدح الديكه
وكيف أحمد أوقاتا مذممة   بين الدءوب وبين الجوع مشتركه
يا صدق من قال أيام مباركة
إن كان يعني عن اسم الطول بالبركه
شهر كأن وقوعي فيه من قلقي
وسوء حالي وقوع الحوت في الشبكه
لو كان مولى وكنا كالعبيد له   لكان مولى بخيلا سيء الملكه
قد كاد لولا دفاع الله يسلمنا   إلى الردى ويؤدينا إلى الهلكه

على أن من التناقض الظاهر أن نرى ابن الرومي في موضع آخر من ديوانه يهنئ أحد الرءوساء بشهر الصيام فينحى باللائمة على المستهترين به، وما درى أنه بشعره هذا قد فتح الباب لمن جاء بعده، ومهما يكن من شيء فقد ظهرت خفة روحه ظهورا أكسبه ملاحة وظرفا عند من يقدرون الأدب لذاته فهو على نقيض أبي العتاهية المسكين، فقد أوقعه حبه رمضان وتعظيمه إياه في مأزق مضحك، قال ابن رشيق في الجزء الثاني من العمدة «لما مات المهدي قام أبو العتاهية يرثيه على ملأ من الناس فقال

« مات الخليفة أيها الثقلان »

فرفع الحاضرون رءوسهم، وفتحوا أعينهم وقالوا: نعاه إلى الإنس والجن ثم أدركه اللين والفترة فقال:

« فكأنني أفطرت في رمضان » .

يريد أني بمجاهرتي بهذا القول كأنما جاهرت بالإفطار نهارا في رمضان وهذا معنى جيد غريب في لفظ ردئ غير معرب عما في النفس» ونحن نخالف صاحب العمدة فيما ذهب إليه من جودة هذا المعنى ولو كان كما قال ما قابله الجمهور بالسخرية والاستهزاء.

وإذا كانت كتب الأدب تروى عن أبى نواس أنه قد حج حجا غير مبرور حين جد فى طلب « جنان » فلم يظفر بطائل، ثم علم أخيرا أنها ذهبت إلى مكة فسار وراءها متظاهرا بالخشوع والنسك وفى ذلك يقول :

ولما أن عييت وضاق صدرى   بمطلبها ومطلبها عسير
حججت وقلت قد حجت جنان   فيجمعنى وإياها المسير

إذا كانت كتب الأدب تروى ذلك، فإنها تروى عن ابن الراوندى أنه قد صام صوماً غير مبرور — لو صح هذا التعبير — وذلك أنه كان سمينا بطينا، فقالت له إحدى صواحبه : إن وراءك شهراً ثقيلا فصمه ليذهب عنك هذا السمن فأطاعها تلبية لرغبتها لا امتثالا لأمر ربه، وهو يعلن هذا على العامة والخاصة فيقول فى تبجح وعناد :

وقائلة وقد جلست جوارى   سمنت وكنت قبلئذ نحيفا
وراءك فى غدٍ شهر ثقيل   فصمه لكى تكون فتى نحيفا
لوجهك لا لوجه الله صومى   ولو أنى لقيت به الحتوفا

وغير غريب من ابن الراوندى أن يقول ذلك فقد كان خبيث العقيدة سيء الطوية، يعترض على كل شيء حتى على ربه فيعجب من مجرى الرزق فى أسلوب وقح، ويهاجم الأديان فى تمرد سافل فكيف تستكثر عليه ما قاله فى رمضان؟ إننا نستكثر ذلك على رئيس فاضل كابن العميد مثلا فقد كان جليل الخطر فى عصره، مطاع الكلمة فى دولته، ثاقب العقل، وضيء التفكير، ومع ذلك فقد تورط فيما تورط فيه غيره حين هاجم هذا الشهر مهاجمة نكتفى بأن ننقل منها هذه الفقرات « أسأل الله أن يقرب على الفلك دوره، ويقصر سيره، ويخفف حركته، ويزيل بركة الطول عن ساعاته. ويرد على غرة شوال، فهى أسنى الغرر عندى وأقرها لعينى، ويطلع بدره، ويسمعنى النعى لشهر رمضان، ويعرض على هلاله أخفى من السحر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بنى عامر » إلى آخر ما جاء فى الجزء الثانى من زهر الآداب.

وكيفما كان الحال فقد فتح ابن العميد بذلك على رمضان ثغرة واسعة، جعلته يستمع هجاءه شعراً ونثراً بعد أن كان يأمن على نفسه من ناحية النثر ويجيء بديع الزمان الهمذانى بعد ابن العميد وهو كما نعلم مولع بتقليده، مقتف أثره، فلا يفوته أن يهجو رمضانَ، فيكتب إلى أحد رؤسائه قائلا « خصك الله بتقصير أيامه، فهو وإن عظمت بركته، ثقيلة حركته، وإن جل قدره، بعيد قعره، فإن حسن وجهه فسوف يقبح قفاه، وما أحسنه فى القذال وأشبه إدباره بالإقبال، جعل الله قدومه سبب ترحاله، وبدره فداء هلاله، وأمد فلكه تحريكا، بتقضى مدته وشيكا، وأظهر هلاله نحيفا، لنزف إلى اللذات زفيفا » ونحن لا نستنكر ذلك من الهمذانى كما استنكرناه من ابن العميد، فقد كان بديع الزمان طويل اللسان، حاد القذف، متطاولا على غيره جاحداً حقوق أولى العلم والفضل، فكيف يعترف بشهر رمضان وقد فتح له ابن العميد الباب على مصراعيه فقال ما قال!

وإذا كنا نستثقل الآن صوم رمضان فى وقدة القيظ وحرارة الصيف فقد وجدنا ابن عون الكاتب يستثقله فى فصل الربيع إذ يرى أنه زمان البهجة، وأوان المتعة واللذاذة، فلا ينبغى أن يكدر بالصوم وفى ذلك يقول

جاءنا الصوم فى الربيع فهلا اخ   تار ربعاً من سائر الأرباع
وكأن الربيع فى الصوم عقد   فوق نحر غطاه فضل قناع

وإذن فالصوم عنده فى الربيع قناع أسدل على نحر مضيء فمنع إشراقه وحجب التمتع برؤيته

أما القاضى الفاضل — وهو من المولعين أيضاً بمحاكاة ابن العميد — فقد نظم قصيدة خمرية طويلة جرى فيها مع اللذات إلى أبعد شوط وقد حرص على أن يهاجم فى مبدئها شهر رمضان — تقليداً لأستاذه — فقال

قضى نحبه الشهر بعد المطال   وأطلق من قيد فتر الهلال
وروض كاتب جنبى اليمين   وأتعب كاتب جنبى الشمال
فدع ضيقه مثل شد الإسار   إلى فرجة مثل حل العقال

وهو بذلك قد وجه نظر أمير الشعراء رحمه الله إلى هذا المعنى بذاته فقال ولكن فى أسلوب أروع ونسج أحكم

رمضان ولى هاتها ياساقى   مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألافها   وأقله فى طاعة الخلاق

صور من العصر العباسى :

الخلفاء العباسيون والهدايا

للاستاذ صلاح الدين المنجد

— ٢ —

أما هدايا الفصد، فلا تخرج عما ذكرت من قبل، فكانوا يهدون الجوارى والصوانى والأقداح والجامات البلور والشمامات والعنبر والمسك.

فقد فصد الرشيد فأهدى إليه اليزيدى جام بلور، وشمامات غالية، وكتب إليه : « يا أمير المؤمنين، تفاءلت بالشرب بالجام بجمام النفس ودوام الأنس، والغالية للغلو فى السرور والازدياد من الحبور(1) ».

وافتصد المأمون مرة فأهدى إليه إبراهيم بن المهدى جارية معها عود، ورقعة فيها :

عفوت وكان العفو منك سجية   كما كان معقوداً بمفرقك الملك(2)

وفى مرة ثانية، أهدت إليه (رباح) اترجة عنبر، مكتوب عليها بماء الذهب بيتين من الشعر أعجب بهما، فكافأهما بمال كثير(3).

وافتصد المعتصم فأهدت إليه (شمائل) صينية عقيق عليها قدح، أسبل عليهما منديل مطيب، مكتوب عليه بالعنبر، أبيات شعر رقيق، فلما قرأه أمر بإحضار اسحق بن ابراهيم، وأمره أن يجعل له لحناً، وأمر مسروراً بإخراجها من وراء الستارة، ثم لم يزل يردد هذه الأبيات حتى أحكمتها شمائل وغنت فكأن سقط الدر يتناثر من فيها وأمر لإسحق بمال وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار(4).

وافتصد ابراهيم بن المهدى، فأهدى إليه اسحق بن ابراهيم الموصلى صوتاً من غنائه، وأرسل غلامه فغناه به(5).

وربما طلب الخليفة من خاصته أن يهدوه، كما فعل المتوكل. فقد افتصد، فقال لخاصته وندمائه اهدوا إلى يوم فصدى. فاحتفل كل واحد منهم فى هديته.

وأهدى إليه الفتح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلها حسناً وظرفاً وكمالا. فدخلت ومعها جام ذهب فى نهاية الحسن، ودن بلور لم ير مثله فيه شراب يتجاوز الصفات، ورقعة فيها تهنئة بالشفاء فاستظرف المتوكل ذلك واستحسنه(6).

ولعل ألطف هدية أهديت فى يوم فصد، هى هدية أبى دلف فقد افتصد عبد الله بن طاهر، فجمع أبو دلف ما أصاب فى

(1) المحاسن والأضداد ص ١٨٤.
(2) المحاسن والأضداد ص ٨١.
(3) المحاسن والأضداد ص ١٨٤.
(4) المحاسن والأضداد ص ١٨٤.
(5) الأغانى ج ٥ ص ٦٦.
(6) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ١٨١.

بالأمس قد كنا سجينى طاعة   واليوم منّ العيد بالإطلاق

ولا أدرى كيف وقع شوقى فى هذا وهو الذى باهى بنسكه وتبتله حين قال

وأشهد ما آذيت نفساً ولم أضر   ولم أبغ فى جهرى وفى خطراتى
ولا بت إلا كابن مريم مشفقاً   على حسدى مستغفراً لعداتى

وعلى كل فإن هذه الحملة الظالمة التى قام بها الأدباء على رمضان لم تستطع أن تزحزح مكانته — ولو قليلا — فى النفوس، بل زادتها رسوخاً وثباتا، وخرج الجانون من المعركة يجرون أذيال الخيبة والهزيمة، وكل امرىء بما كسب رهين

* * *

وبعد فما أردت بهذا العرض الموجز أن أتزيد على رمضان، فيعلم الله أنى أول الناس تفانيا فى محبته وإجلاله، ولكنى قصدت الترفيه عن القراء فى وقت اندلعت فيه ألسنة الهجير فأحرقت الأفئدة وألهبت الجلود، ومن يدرى لعل هؤلاء الأدباء يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، فرب متظاهر بالصوم والعبادة وبين جنبيه قلب مدنس بالمعاصى مثقل بالآثام، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها

خليلى، قطاع الفيافى إلى الحمى   كثير، وإن الواصلين قليل

محمد رجب البيومى

السوق من الورد وأرسله هدية له(١) ، وقد أوردت هذا الخبر لظرفه ، رغم أن ابن طاهر ليس من الخلفاء .

* * *

أما هدايا العمال والولاة والملوك فكثيرة . فكان كل وال يتفنن بإرسال الهدايا للخليفة ابتغاء مرضاته . فقد وجه يعقوب ابن الليث صاحب خراسان إلى المعتمد هدية من جملتها عشر بزاة منها باز أبلق لم ير مثله ، ومائة مهر ، وعشرون صندوقاً على عشرة بغال ، فيها طرائف الصين وغرائبه ، ومائة عود من مسك ، ومائة من عود هندى ، وأربعة آلاف درهم(٢) .

ولما قدم ابن الجصاص من مصر على المعتضد ، مرسلا من خمارويه ، كان معه هدايا من العين عشرين حملا على بغال . وعشرة من الخدم ، وصندوقان فيهما طرائف . وعشرون رجلا على عشرين نجيباً بالسروج المحلاة ، ومعهم جرار فضة ، وعليهم أقبية ديباج وسبع عشرة دابة بسروج ولجم ، منها خمسة بذهب والباقى بفضة ، وزرافة(٣)

وقد يرسل إلى الخليفة كل غريب . ففى سنة ٢٩٩ وردت من مصر هدايا منها كما ذكر الصولى تيس له ضرع يحلب اللبن .

ووردت رسل أحمد بن اسماعيل بهدايا منها مذبة مرصعة بفاخر الجوهر ، وتاج من ذهب مرصع بجوهر له قيمة كبيرة . ومناطق ذهب مرصعة ، وربعة ذهب مرصعة(٤) .

ووردت هدايا ابن أبى الساج أربعمائة دابة ، وثمانون ألف دينار ، وفرش أرمنى لم ير مثله فى بساط طوله سبعون ذراعاً فى عرض ستين ذراعا ، عمل فى عشر سنين(٥) .

وفى سنة ٣٠٥ ، زمن المقتدر ، ورد على السلطان هدايا جليلة من أحمد بن هلال صاحب عمان . وفيها أنواع الطيب ، ورماح ، وطرائف من طرائف البحر ، وطائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفصح من الببغاء ، وظباء سود(٦) .

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .
(٢) مطالع البدور ج ٢ ص ١٣٠ .
(٣) المنتظم ج ٥ ص ١٣٨ .
(٤) ، (٥) المصدر السابق ج ٦ ص ١١٠ .
(٦) المنتظم ج ٦ ص ١٤٥

وفى سنة ٣١٠ هـ وصلت هدية ابن المادرانى الحسين بن أحمد من مصر ، وهى بغلة ومعها فلو ، وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه أنفه(١) .

* * *

وكان ملوك الروم والفرنجة يهدون إلى الخلفاء العباسيين الهدايا العظام تودداً وتحبباً . فقد أهدى ملك الروم إلى المأمون مائتى رطل مسك ، ومائتى جلد سمور . فقال المأمون : ضاعفوها ليعلم عز الإسلام(٢) .

وأهدت ملكة الفرنجة إلى المكتفى بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً ، وخمسين رمحاً ، وخمسين فرساً ، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب ، وعشرين خادماً صقلياً حسناً ، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع ، وستة بازات وسبعة صقور ، ومضرب حرير(٣) .

وفى سنة ٣٢٦ هـ ورد كتاب من ملك الروم إلى الراضى . وكانت الكتابة بالرومية بالذهب ، والترجمة بالعربية بالفضة ، بطلب الهدنة . وفيه : « لما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب ، واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء ، حمدنا الله تعالى ... وقد وجهنا شيئاً من الألطاف ، وهى أقداح وجرار من فضة وذهب وجوهر ، وقضبان فضة ، وستور ، وثياب سقلاطون ، ونسيج ومناديل وأشياء كثيرة فاخرة » .

فكتب إليهم الجواب بقبول الهدية ، والاذن فى الفداء ، وهدنة سنة(٤) .

* * *

فهذه ألوان من الهدايا ، وتبيان لهذه العادة الاجتماعية التى كان لها شأن فى العصر العباسى ، الحافل بالعجائب والغرائب .

صلاح الدين المنجد

(١) المصدر السابق ص ١٦٧ .
(٢) أخبار الخلفاء ص ١٢٩
(٣) مطالع البدور ج ٢ ص ٢٩٣ .
(٤) المنتظم ج ٦ ص ٢٩٣ .

هل من جديد فى الأزهر ؟

للأستاذ الأب قنــواتى

إن المؤرخ الذى يحاول أن يتتبع مراحل التطور الفكرى فى مصر فى أيامنا هذه يضطر – بلا جدال – إلى الإقرار بأن حياتنا العقلية تتمخض تمخضاً عنيفاً ، وأن روح التقدم الحقيقى الذى يأبى أن يضرب عرض الحائط بما فى تراثنا الثقافى من قيم خالدة – أخذ يتسرب رويداً رويداً إلى مختلف أوساطنا العلمية.

ولطالما كانت تخامرنى هــذه الفــكرة أثناء إقامتى فى الخارج ، ولطالما تحدثت عنها – فى باريس ، وفى فاس ، وفى تونس – مع الذين يهتمون بمستقبل الثقافة العليا فى البلاد العربية ؛ فكنا نتساءل – مع شيء من اللهف – عن مدى انتشار هذه الثقافة ، وقوة تغلغلها فى الأذهان : هل تظل شيئاً سطحياً شكلياً ، أم تخوض فى صميم التعليم فتكيف العقلية ؟ ولئن كان هذا التطور يبدو بكل وضوح فيما يخص الجامعة المصرية ، لما هى عليه – منذ نشأتها – من انسجام مع الروح الحديث ؛ فالأمر كان لا يخلو من الغموض فيما يتعلق بالأزهر ، وهو المعهد العتيق الذى تركزت فيه منذ قرون برامج كادت – بموجب موضوعها – تتنزه عما يتطور ويفنى . .

ولذا كنت مشغوفاً كل الشغف عند ما رجعت إلى الديار المصرية – وأنا منكب على دراسة فلســفة القرون الوسطى مسيحية كانت أو إسلامية – أن أتصل بمن يوقفنى على تطور التعليم فى المعاهد الدينية فى هــذه المادة ؛ وخصوصاً فى الأزهر الحالى وموقفه من الأبحاث المقارنة التى تسنى لى أن أتبين خطورتها أثناء دراستى فى المعاهد الدينية فى أوربا ، ولذا لبّيتُ – بكل ترحاب – دعوة أحد أصدقائى الأزهريين إلى حضور المناقشة العلمية لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ فى التوحيد والفلسفة التى كانت إقامتها مزمعة يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٤٦ فى مدرج كلية أصول الدين فى القاهرة ، ولقد شكرت صديقى أيما شكر لهذه الفرصة التى هيأها لى ، فسمح لى أن أجد بطريقة عملية إيجابية جواباً لما كنت أوجهه لنفسى من سؤال ، وهذا ليس فقط من جهة الموضوع الذى نوقش فيه « تخريج كتاب الملل والنحل للشهرستانى » ؛ بل أيضاً من جهة الجو الروحى الذى ساد هذه المناقشة ، ومن جهة انسجام العناصر المختلفة التى توفرت فيه : فهناك سعادة الدكتور منصور فهمى باشا – مدير جامعة فاروق الأول سابقاً ، وكاتم سر مجمع فؤاد الأول للغة العربية – يرأس اللجنة ، وهو ممن طالما ناشدوا روح التعاون الثقافى والتآزر العلمى ، وهناك الدكتور محمود الخضيرى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول سابقاً ، ووكيل البحوث والثقافة الإسلامية للأستاذ الأكبر شيخ الأزهر ، وهو من أبناء الجامعة المصرية الذين تخصصوا فى فرنسا وطافوا فى ألمانيا وأسبانيا ، وهناك الدكتور محمد غلاب خريج الأزهر وفرنسا ، وهناك الدكتور محمود حسب الله خريج الأزهر وانجلترا ، وهناك الدكتور محمد البهى خريج الأزهر وألمانيا – وثلاثتهم من أساتذة الفلسفة بالجامعة الأزهرية – أليس تكوين هذه اللجنة هو وحده رمزاً لما ينشده الأزهر ، ورمزاً لرغبته الأكيدة فى الأخذ من المناهج الحديثة بما يلائم رسالته العلمية ؟ .. ومما زاد هذا الرمز بلاغة تنوع النظارة الذين تسارعوا إلى حضور المناقشة

نعم ، إنه كان من الطبيعى أن نرى هناك أساتذة من الأزهر وطلبة أزهريين ، فالبيت بيتهم ، والمناقش من إخوانهم ، ولكن أليس من الغريب السار أن نجد بينهم أربعة قساوسة رهبان من يسوعيين ودومنيكيين ، أحدهم مستشرق أمريكى والآخرون شرقيون ، بل مصريون ممن يعرفون الأستاذ المناقش جد المعرفة ؟ وأليس أعجب من هذا أن نشاهد بين الحاضرين آنسات فى المكان الخاص الذى خصص لهن فى أعلى المدرج ؟

وما وافت الساعة الخامسة حتى افتتح سعادة الرئيس الجلسة بكلمة استغرقت نصف ساعة ، وهو يتكلم بحماسة رزينة هادئة واعتقاد عميق يعطى أحيانا لعباراته نبرة قوية تجعلها تنفذ نفوذا إلى الأذهان والقلوب : بدأ بالثناء على فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، الذى عاقه عن الحضــور انعقاد المجلس الأعلى للأزهر ، وعلى فضيلة الأســتاذ الكبير وكيل الأزهر ، وعلى فضيلة شيخ الكلية ، وكرر الشكر لكل من ساهم فى العمل على اتساع دائرة الاتصال العلمى بين الأزهر والعلماء المدنيين والجامعيين ، خصوصاً فضيلة الأستاذ الأكبر الذى تخصص فى الفلســفة بجانب تمعقه فى النواحى الدينية المختلفة ، والذى أفادت منه الجامعة المصرية حينا من الدهر ، ثم أبدى سعادة الرئيس أمله فى أن الأزهر سينال اهتمام فضيلة الأستاذ الأكبر من الناحية الفلسفية ، وأن نوابغ الأزهريين سيكوّنون – مع أستاذهم الأكبر – جوا سانحا للدراسات

الفلسفية بحيث يستطيع الأزهر أن يؤثر — حتى من الجهة الفلسفية نفسها — على الجامعات الأخرى، مادام الأزهر يطبق الأنماط العلمية في المناقشة والمثابرة في طلب الحق الذي هو ضالة المؤمنين ...

ثم وجه سعادة الرئيس كلمة لطلاب البحث العلمي والحقيقة العلمية، ناصحا إليهم بالجد والاجتهاد واتساع الآفاق والصبر والأمانة العلمية، حتى يصلوا إلى ذلك الموقف الذي وقف فيه زميلهم — صاحب الرسالة — ذلك الموقف الذي يدل على حب البحث العلمي والتفاني فيه، والذي يفتح الأبواب أمام منهومي العلم الذين لا يشبعون. وتمنى سعادته للأزهريين مستقبلا باهرا ما داموا يوسعون ميادين بحوثهم وآفاق ثقافتهم، بحيث يلتقي بهم ويتبادل الفائدة معهم من لم يسعدهم الحظ، ومن لم تتح لهم الظروف أن يتثقفوا بثقافة الأزهر.

ثم قرر سعادته: «أننا في عصر تعاون وتفاهم وتقارب بين الفلسفات، بل وبين الأديان نفسها، وأن هذا التواصل والتعاون هما اللذان يسيران بالإنسانية إلى وحدتها المنشودة وغايتها المرجوة، وآية ذلك ما نشاهده الليلة من جو مشبع بروح التسامح والنهوض الفكري». وأشار سعادة الرئيس إلى أن هذه أول مرة يرى أو يسمع فيها أن في الأزهر غربيين وقساوسة ورهبانا: «وهذا يذكرنا بروح التسامح الذي كان الأزهر متسماً به، والذي كان صدر الأزهر دائما منفسحاً له». وأن هذه أول مرة أيضا سمع فيها سعادته أو رأى آنسات يحضرن مجالس العلم في الأزهر وتخصص لهن أماكن فيه.» وهذا يدل على درجة عالية في النضوج الفكري والمستوى العلمي المفروض طلبه على كل مسلم ومسلمة، ويبين في وضوح أن الأزهر أخذ يقدر ما هو مطلوب منه بإزاء المسلمات بجانب ما هو مطلوب منه بإزاء المسلمين، وأن هذا كله جو مبشر يدعو إلى التفاؤل بمستقبل الأزهر، الذي كان قد انعزل مدة طويلة حتى عن العلماء المدنيين».

ثم قال سعادته: «أما وقد لبى الأزهر حاجة العصر، وساير روح الزمن، فساهم في الوحدة العالمية، واتصل بالعلوم التي تكونت في ميادين أخرى بروح التسامح الديني، والتآزر الفلسفي، والتآخي العلمي، فإنه سيصل — قريبا — قدمه بحديثه، ويصبح منبع ثروة كبيرة في التوجيهات الفكرية والعلمية والدينية للعالم كله، وهذا مأمول، وهو في رعاية شيخ درس الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية وأفاد مما فيهما من خير مذكور. ونصيحتي العامة لكل شخص: أن يعمل للخير الذي وضعه الله في فطرة الإنسان السليمة، تلك الفطرة التي تتمثل في الأديان جميعا: خيرا، ومحبة، وإخاء، وعدلا ... حتى يكون هناك التفاهم الفكري والتفاهم الروحي، وحتى تسير الإنسانية إلى خير ما خلقت له.» (1)

ولعمري! لم أكن لأنتظر في هذه القاعة هذا الوضوح في رسم الهدف، وهذه العزيمة في السعي وراء تحقيقها، فهاهي الروح الجديدة التي كنت أتساءل عما إذا كانت وصلت إلى الأزهر، وهاهو الزرع المبارك الذي بدأ ينبت بإذن ربه، فالمناقشة التي تلت هذه الكلمة جاءت بمثابة تطبيق للمبادئ التي وضحها سعادة الرئيس، فالأستاذ صاحب الرسالة — وهو واقف رابط الجأش أمام المجلدات الأربعة لرسالته — أخذ يشرح موضوع رسالته، ثم يجيب بهدوء عن الأسئلة التي وجهها إليه بالتوالي أعضاء اللجنة؛ وهي أسئلة دقيقة تنفذ إلى لب الموضوع وتحاول تارة نقد منهج البحث، وتستفسر طورا بعض نتائج الرسالة؛ حوار بديع علمي رزين، أعاد إلى ذاكرتي تلك الرسالات التي تناقش في أوربا؛ ولكن هنا مع شيء من «الظَّرف» المصري الذي لم يقلل شيئا من جد المناقشة؛ بل يكسبها روحا شرقية خاصة لم أجدها في الخارج.

وفي تمام الساعة الثامنة والنصف — أعني بعد مناقشة استغرقت ساعتين — رفعت الجلسة، وخرجت اللجنة للمداولة، ولما رجعت إلى قاعة المناقشة نطق سعادة الرئيس بالحكم قائلا: «بعد أن تناقش أعضاء اللجنة فيما استبانوه من حسن الاستعداد الفلسفي، واتساع الآفاق، والمجهود القيم في التأليف، والمثابرة على العلم، ومراعاة الخلق العلمي، وتلقي النقد بصدر رحيب يدل على محبة الحق ... قررت اللجنة فوز فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن فتح الله بدران بشهادة العالمية مع لقب أستاذ من درجة ممتاز في التوحيد والفلسفة». فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف ...

ورجعت إلى «الدير» والذهن مملوء بتفاصيل هذه الحفلة الثقافية العليا؛ فحدثتني نفسي أن أسطر هذه الأسطر؛ لعلها تساهم — لا من جهة الرأي الشخصي؛ بل من جهة الواقع المحسوس — أقول: لعلها تساهم في إيضاح مشكلة الأزهر التي عولجت مرارا على صفحات مجلة الرسالة الغراء.

الأب قنواتي

(1) عرضنا هذه الأقوال على سعادته فأقرها.

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٢ —

البرسبيتريز والصدمة الثانية :

قلت قيمة المرأة في نظر ملتن ، وانحط مستوى الطبيعة البشرية عما قدر لها من قبل في خياله وفكره ، وساءه أن يعرض معاصروه عن آرائه في الطلاق ، وما جاهد جهاده إلا لخيرهم ؛ وآلمه وكدره أن يخاصمه بعض الناس وأن يناصبوه العداء ؛ وجاءت مخالفة البرسبتيريز إياه بعد ذلك ، فكانت هي الطامة الكبرى .

قدر ملتن أن سوف ينظر إليه أهل عصره لما أذاع فيهم من رأى في الطلاق نظرتهم إلى مصلح عظيم ، وكان يرى في تطلع ذلك العصر إلى الإصلاح وشدة ميله إلى تغيير كل شيء وعلى الأخص في السياسة والدين حافزا يحفزه ويزيده استبشارا وأملا ، كما كان يدفعه إلى الجد ويوحى إلى نفسه أنه يعمل عمل أفذاذ المصلحين ، شدة ثقته في نفسه وكثرة الذهاب بها ويقينه من تمكنه وضلاعته واتساع أفقه ، وما يرى من إكبار أصحابه إياه ؛ ومن كان هذا شأنه كان خليقا أن يستشعر مرارة الخيبة مضاعفة وأن يبلغ من نفسه الألم مبلغا عظيما إذا لقيه الناس لا بعجافاته وإعراضهم عنه فحسب ، بل بمدافعة آرائه كذلك ومجاهرته بالسوء من القول ؛ وكان كذلك خليقا أن يغضب وأن يرد عمل أهل عصره إلى الغباء والجهل والجمود ، وإنه ليوقن أن ما بينهم وبينه من فرق في الثقافة والمعرفة كمثل ما بين الظلمات والنور .

ولقد أفصح عن مبلغ ما كان يضطرم في نفسه من حنق على قومه ، وعن مبلغ ازدرائه إياهم وسخره منهم في مقطوعتين نظمهما سنة ١٦٤٥ ؛ ففي الأولى راح يتهكم ويسخر من جهل خصومه قائلا إن كتابا اسمه « تترا كوردون » أذيع في الناس من وقت قريب فبلغ من جهل بعضهم أنهم نظروا حيارى إلى عنوانه قائلين ما هذه الكلمة التي اتخذت له عنوانا ، وقرأ بعضهم فأخطأ النطق وعجز عن الهجاء ؛ ثم يعجب الشاعر من هؤلاء ويستعرض بعض أسماء ألفوها ويتساءل قائلا : لم يكون عنوان كتابه أعسر منها في أفواه هؤلاء السادة ، وقد ألفت أفواههم المسير الجافي من الكلم ، ثم يذكر أول أستاذ للغة الأغريقية في كمبردج في القرن السادس عشر ، ومعلم الملك ادوارد السادس وهو سير جون تشيك ، فيناجي روحه قائلا :

« إيه يا روح سير جون تشيك ! إن عصرك لم ينفر من المعرفة إذ كنت تعلم كمبردج وتعلم الملك الأغريقية كما ينفر من العلم عصرنا الذي نعيش فيه » .

وفي المقطوعة الثانية كان ملتن أشد حنقا وأوجع هجوا منه في سابقتها وحسبك منه قوله : « إنما جهدت أن أحمل أهل هذا العصر على أن يتخلصوا من قيودهم ، وذلك بالرجوع إلى قواعد الحرية القديمة المعروفة[1] ؛ وبينما أعمل عملي إذ أحاطت بي جوقة من البوم والحمير والقردة والكلاب ، ففعلوا بي كما فعل أولئك القرويون الذين أحيلوا إلى ضفادع[2] جزاء بما أجرموا إذ هوشوا على نسل لاتونا التوأمين[3] اللذين صار لهما بعد ذلك ملك الشمس والقمر ؛ وذلك الذي نالني إنما هو كل ما يناله الرجل من جزاء إذ يلقى باللآلىء إلى فصائل من العجماوات تجهد في غبائها المجرد من كل حس في طلب الحرية ، حتى إذا جاءها الحق الذي يكسبها الحرية ثارت ضده وتألبت عليه ؛ وهؤلاء إنما يعنون الفوضى إذ يهتفون بالحرية ؛ فأن من يعشق الحرية ينبغي أولا أن يكون خيرا عاقلا ؛ وإنا لنستطيع أن نرى إلى أي مدى يبعد هؤلاء عن الهدف

(١) يقصد ملتن ما جاء في التوراة من قوانين عن الطلاق ، وما أخذت به الكنيسة المسيحية في أيامها الأولى

(٢) جاء في الميثولوجيا أن جونو أرغم لاتونا عشيقة جوبيتر على الفرار فظلت تبحث لنفسها عن مأوى ، فبينما كانت تشرب من بحيرة في ليشيا إذ بصر بها بعض القرويين فآذوها وأهانوها وعكروا الماء بأيديهم وأرجلهم فعاقبهم جوبيتر بأن أحالهم إلى ضفادع .

(٣) ولدت لاتونا بعد ذلك أبولو إله الشمس وديانا إلهة القمر ؛ ولم يفرق ملتن هنا بين لاتونا ونسلها .

على الرغم مما ينفق من مال وما يبذل من دم[1] .

ولئن بلغ به الحنق هذا المبلغ على أهل عصره بوجه عام ، فقد كان حنقه على البرسبتيرينز أشد من ذلك درجات ، وكان أسفه لما كان من موقفهم حياله أعظم وأقوى ، فمن أوهى الأمور وأقبحها أن تأتى الخيبة من حيث يلتمس الرجاء ، وأن تقع البلوى على يد من يطلب عنده العزاء ...

آلم ملتن وزاده غما على غم أن يعلم أن البرسبتيرينز على منصاتهم وفى كتاباتهم يصفونه بالطيش ، ويقررون أنه يذيع مبادىء إباحية ، وأنه بما نشر إنما يمثل الألحاد والفسوق عن أمر الله أتم تمثيل ؛ ولكن روحه القوية لم تهن وإن أصابها الحزن ، ونفسه الأبية لم تذل وإن اجتمعت عليه المحن ، وأقبل يهاجم البرسبتيرينز كما هاجم القساوسة من قبل ، يأبى إلا أن يدافع أبدا عن الحرية فى أى صورة من صورها ، والمجال اليوم مجال حرية الرأى فما أحراه أن يناصر حرية الرأى .

اعتزم ملتن أن يعيد النظر فيما كان يرى من رأى فى الإصلاح الدينى ، وأحس فى نفسه الميل إلى مقاومة تشدد البيوريتانز وتزمتهم فيما يتصل بالدين وحياة المجتمع ، ذلك التزمت الذى بلغ منتهاه عند جماعة البرسبتيرينز ، والذى جعل ملتن يؤمن اليوم إن هؤلاء ليسوا أقل تعصبا ولا جمودا من القساوسة ، وليسوا أوسع منهم أفقا ولا أخف حمقا .

ولم يكن غضب البرسبتيرينز على ملتن بسبب ما جاء به من آراء حول الطلاق فحسب ، وإنما أغضبهم كذلك جرأته فى الدعوة إلى الاعتماد على العقل فى تفسير الأنجيل ، وعدم التقيد بأقوال من سبق من رجال الكنيسة فى تفسيره وتأويله ما لم يتمش ذلك مع المعقول ويوافق طبائع الأشياء .

فالمعركة اليوم إذاً معركة الرأى وحريته ، والعقل وكرامته ، وشخصية الفرد وكيانها ، وحسب ملتن من الفخر أن يكون فى ذلك طلعة بين أهل عصره كما كان طلعة فى حربه على القساوسة وفى آرائه حول الطلاق ...

وحدث بين جماعات البيوريتانز خلاف سنة ١٦٤٣ جعل لخروج ملتن على البرسبتيرينز صدى أشد وأبعد مما كان يقدر له لو لم يقع هذا الخلاف ، وبيان ذلك أن مجمعاً من البيوريتانز انعقد فى وستمنستر فى تلك السنة للنظر فى النظام الذى تخضع له الكنيسة فى انجلترة ، أى طريقة إدارتها ، وقد قضى هذا المجمع بإحلال البرسبتيرية محل الأسقفية نهائياً ، وتغيير كتاب الصلاة المتبع ، ووافق البرلمان على ذلك ، وكانت أغلبية أعضائه يومئذ من البيوريتانز المؤيدين للبرسبتيرية ، ولكن جماعة من المستقلين خالفوا أعضاء مجمع وستمنستر فى بعض الأمور إذ أحسوا فيها تزمتا وشدة وطالبوا بشىء من الاعتدال ، ونشر خمسة منهم كتابا يحتكمون فيه لا إلى البرلمان وحده بل الرأى العام فى المملكة كلها ؛ فلما خرج ملتن على البرسبتيرينز سنة ١٦٤٤ ، وأخذ يطعن فيهم وهو الذى عرف بانتصاره للحرية أيد ذلك قضية المستقلين ، وأحاط البرسبتيرينز بشبهة التعصب ومجافاة حرية الرأى .

وقد بدأ الخلاف بين ملتن والبرسبتيرينز كما قدمنا فى أواخر سنة ١٦٤٤ وذلك بعد أن ذاع كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » وبعد أن نشر مقاله الذى جعل عنوانه « رأى مارتن بوسر فى الطلاق » ، فقد طالبوا بمصادرة كتيبه لأنه طبعه بغير تصريح مخالفا بذلك قانون الطبع الذى هو من صنع أيديهم والذى أرادوا به حماية نظامهم الكنسى ، فرأى ملتن إذ ذاك أن أصدقاءه يعملون على خنق الحرية كما يعمل الأساقفة ، ومن ثم دب بينه وبينهم الخلاف؛ وهل يظل صامتا حيال صيحتهم؟ ذلك ما لا تطيقه نفسه وما لا تطامن له كبرياؤه ؛ وذلك ما لا يتفق مع حبه للحرية حبا درج معه منذ نشأته ، وإذاً فلا بد من رد ولا بد من صيحة يكربها عليهم ويدفع بها عن الحرية ؛ ولكن البحث فى الطلاق يملك عليه وقته وفكره فليدعه إلى حين ، وليجعل همه إلى كتيب يناصر به حرية الرأى ، ويهاجم فيه الرقابة على هذه الحرية هجوما عنيفا .

ويفرغ ملتن من كتيبه هذا وينشره فى نوفمبر سنة ١٦٤٤ أى قبل نشر كتيبه « ترا كوردون » بنحو أربعة أشهر ويعرف هذا الكتيب باسم « اريوباجيتيكا » ، وفيه يحتكم إلى البرلمان وإلى كل ذى رأى حر .

وبلغ من جرأة ملتن وكبرياء نفسه وتحمسه للحرية أنه نشر هذا الكتيب كذلك بغير إذن ، فكان عمله هذا تحديا للبرسبتيرينز من ناحيتين ، فهو يهمل قانون الطبع الذى وضعوه وقرروه ، وهو فى الوقت نفسه ينكر بكتيبه هذا الرقابة على الكتب كما تتمثل فى ذلك القانون ويراها قيدا بغيضا لحرية الرأى فعنده أنه يجب القضاء على هذه الرقابة: « حتى لا يكون الحكم على ما يجوز طبعه وما لا يجوز لفئة قليلة أكثرهم لا يعدون فى

(١) يشير ملتن إلى الحرب الأهلية الدائرة رحى يومئذ.

العلماء إذ أن كفايتهم عادية شائعة » .

وكان الكتيب في صورة خطبة مكتوبة موجهة إلى البرلمان وقد جعل ملتن شعاره عبارة مقتبسة من كلام يوربيد أثبتها بنصها الأغريقي ؛ وهو بعد خطبة فليسر فيه درس وفق منهج معين أو تمحيص لما يعرض له من آراء ، أو تقص للأفكار التي يؤيد بها رأياً أو يخالف رأياً ؛ ولكنه على الرغم من ذلك أو لعله بسبب ذلك كان من أحسن ما نشر ملتن من هاتيك الكتيبات ، فهو فيض نفس نبيلة حرة ، تفهق صفحاته بكلام من خير ما كتب في الحرية فصاحة لفظ وبلاغة عبارة ورقة شعور ونبل حس وشجاعة رأي وحرية قول ...

وكان الأمل والحماسة ملء كتيبه هذا ، فلئن خاب أمله في البرسبتيرينز فليسوا هم كل شيء ، بل إنهم وقد نصبوا أنفسهم أعداء للحرية لم يعد لهم من الأمر شيء ، وإن انجلترة لتتجه نحو أمل جديد تراه في شخص كرومول وهو زعيم المستقلين ولجنده الظافر كما تنبيء حوادث الحرب، وإن المستقلين جميعا وطلاب الحرية ليلتفون حوله ، فهو في غده أمل انجلترة ونصير الحرية وبطلها ؛ ذلك ما كان يتحدث به ملتن إلى نفسه وذلك ما بث في كتيبه الرجاء.

وزاد الأمل تمكنا من نفسه أنه وقد استعدى عليه الرقباء في البرلمان لم يمسسه شيء مما أرادوا به من سوء ، إذلم يرض مجلس اللوردات أن يشايع البرسبتيرينز فيما يذهبون إليه من رغبة في التضييق على حرية النشر ؛ واغتبط ملتن أيما اغتباط وارتاح أيما ارتياح إلى هذه المعاملة التي زادته ثقة في نفسه ، ويقينا من علو مكانته في قومه .

ويحس المرء لذة قوية إذ يقرأ هذا الكتيب ، فليس فيه مثل ما في كتيباته التي أرسلها على القساوسة من غل الخصومة وعنف الهجاء ، وإنما يسوده الهدوء وحسن السياق ؛ وهو فضلا عن ذلك قريب إلى العقليات الحديثة بما حواه من أفكار حول حرية الرأي وحرية النشر ، وحسبك منه بعض ما كتبه ملتن عن قيمة الكتب مثل قوله : « إن من يقتل كتابا طيبا كمن يقتل رجلا ؛ بل إن من يقتل رجلا إنما يقتل مخلوقا عاقلا ، في حين أن من يقضي على كتاب قيم فقد قتل العقل نفسه ؛ وإن كثيرا من الناس يعيشون عالة على هذه الأرض ، أما الكتاب الجيد فهو دم الحياة الغالي ، دم كاتبه ، ذلك الروح العبقري ، وقد حنط ذلك الدم واختزن ككنز ثمين ليبقى ذخر الحياة بعد حياة » .

ويقع المرء فيه على كثير من العبارات المتينة الجميلة جمعت بين الأيجاز والشمول كقوله : « يظل الأحمق أحمق أوتي كتابا جيدا أو لم يؤت كتابا قط » . وكقوله : « يجد المطهرون كل شيء مطهرا ، وليس ذلك في طعامهم وشرابهم فحسب ، ولكن في كل صنوف المعرفة الطيب منها والخبيث فلا يمكن أن تفسد المعرفة كما لا يمكن تبعا لذلك أن يفسد الكتب ما دامت الإرادة والضمير لا يتطرق إليهما الفساد » .

ويأتي ملتن بطائفة من الآراء تنم عما كان يجول في خاطره بعد القطيعة بينه وبين البرسبتيرينز ، فهو ينكر اليوم عقيدة القدر المحتوم التي اعتنقها البيوريتانز عن كلفن ويأخذ بعقيدة الإرادة الحرة التي نادى بها أرمينيتس ويصف هذا الأخير بقوله « أرمينيس الواضح البين » وينفر ملتن من تزمت البيوريتانز وتشددهم في كل شيء ، وبعد أن كان من قبل وهو الشاعر الذي يعشق الجمال ويحس الحياة إحساساً قوياً في حيرة بين ما تقتضيه الطبيعية وما تقوم به الروح ، نراه اليوم يعلن أن في وسع المرء أن يجمع بين الإثنين في غير حرج ، وقد كان ما تقوم به الروح عنده قبل ذلك في المحل الأول ، نجد ذلك واضحاً في قوله « لماذا خلق الله العواطف وبثها فينا ، ولماذا خلق مسرات الحياة وأحاطنا بها ، وليس معنى ذلك أنه يبيح الاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده في غير قيد ، ولكنه يريد ألا يتشدد فيرى في كل زينة وفي كل متعة ما يوبق الروح كما يفعل الغالون من البرسبتيرينز، ولقد باتوا عنده كالقساوسة حماقة وضيق عقل وسوء تعصب كما يتضح في قوله إذ يشير إلى خنقهم حرية الرأي « إنما تخرج أفانين القساوسة براعمها من جديد » .

ويعد ملتن في الواقع بعد اختلافه مع البرسبتيرينز من المستقلين، بل لقد كان أكثر من مستقل ، فسوف لا يؤيد بعد اليوم نظاماً كنسياً ما أو يأخذ برأي من الآراء لا يتحول عنه أولا يقلب النظر فيه ؛ أو يغشى كنيسة من الكنائس غشيانا رتيباً ، وإنما تسيطر عليه روح دينية توحي إليه تقواه وطهره . وإن كان مستقل الرأي لا يقبل شيئا لا يطمئن إليه عقله ولا يتقيد بمذهب معين ؛ على أنه وإن لم يتقيد بمذهب لا ينسى كراهته للقساوسة من أشياع روما والكاثوليكية بوجه عام ، كما لا ينسى غضبه على البرسبتيرينز ولا اتهامه إياهم بأنهم أعداء الحرية ، وأنهم لذلك كالقساوسة عقبة في سبيل الإصلاح الحق ، وأنهم يبالغون في تزمتهم وتشددهم مبالغة تفضي حتما إلى النفور من مذهبهم .

(يتبع) الخفيف

حول الاتباعية والابتداعية

Classicism a d Romanticism

توطئة لدراسة الأقصوصة والقصة والرواية

للأستاذ فخري قسطندي

هذا مبحث جديد قديم ، بكر مطروق ، كثر فيه القول ، وطال حوله الجدل ، وبرغم ذلك لم تنل منه الأيام ، فلم تعصف بطلاوته ولم تذهب بطرافته . كان بالأمس ولا يزال إلى اليوم مثارا لخصومة عنيفة ، ومدارا لأخذ ورد شديدين بين دعاة الكلاسيكية وأنصار الرومانتيكية ، دون الوصول إلى رأى جازم أو قرار حاسم أو نتيجة قاطعة . ومن طريف ما يروى أن نقطة الرومانتيكية كانت مبعث خيبة مريرة ، وذهول عميق لقارئين من قراء إحدى المجلات الأدبية التي تصدر في باريس .

ذلك أن الفريد دى موسيه طلع عليهما في ١٨٣٦ بكتابه : Lettres de Dupuis et Cotonet الذي فصل فيه القول عن الرومانتيكية تفصيلا ، وأفاض فيه إفاضة ؛ وألمع إلى معان لم تدر لهما بخلد أو تختلج لهما في عقل . فما كانت الرومانتيكية عندهما حتى ذلك العهد سوى نزعة أدبية تطبق على المسرحية ولا تطبق على غيرها من سائر ألوان الأدب . فشكسبير على سبيل المثال رومانتيكي ، لأنه خرج في مسرحياته على الوحدات الثلاث التي استنها رجال الأدب الأقدمون من نقاد الاغريق واللاتين ، وهي وحدات العمل والمكان والزمان فلم يتقيد بهـا أو يأبه لها . فشخوصه تطوف أبدا في الأقطار ، ما يقر لها قرار ، تحل روما ثم تؤم بلندرة ثم تكر راجعة من حيث أتت ، وذلك كله في ظرف وجيز ، ووقت قليل لا يتعدى ربع الساعة أو يتخطاها بحال من الأحوال .

وما كان لهما أن يتلقيا الصدمة الشديدة الوطأة بثبات روع أو هدوء بال ، وقد تبينا لأول مرة أن هناك حكايات Novels وقصائد odes ومقطوعات شعرية poems رومانتيكية ، كما أن هناك حكايات وقصائد ومقطوعات شعرية كلاسيكية .

وكان مما قالاه في هذا الصدد « لم يكن في مقدورنا حين تلقينا هذا النبأ أن نغمض العين طوال الليل « quand nous reçumes " cette nouvelle, nous ne pumes fermer l'oeil de le nuit "

هذا طرف مما وقع لبعض القراء من الخلط والاضطراب في أمر هاتين اللفظتين ، وهو ليس بنادر الوقوع أو بعيد التصديق . فهاتان اللفظتان تضيقان بلا مراء بالمعاني المحدودة والمفهومات المعروفة . وفي إمكاننا أن نسوق الدليل بعد الدليل نؤيد به ما ذهبنا إليه ؛ فالأدلة كثيرة والشواهد متنوعة . ومن قبيل ذلك ما يؤثر عن العلامة ج . ج . روبرتسن J G. Robertson أحد نقاد الأدب الانجليزي المعاصرين . ففي ١٩٢٣ أصدر سفرا قيما يتسم بسعة العلم وغزارة المادة أطلق عليه دراسات في أصول النظرية الرومانتيكية في القرن الثامن عشر في إنجلترا Studies in the genesis of Romantic Theory in the Ie th Cnte انتهى فيه إلى القول بأن الرومانتيكية في إنجلترا في القرن الثامن عشر لم تكن من نتاج الأدباء الانجليز أو ابتكارهم بل هي مستمدة منقولة بجميع خصائصها وكافة سماتها عن لفيف صغير من النقاد الإيطاليين مغموري الإسم . وفي السنة ذاتها ظهر كتاب في بولونيا ، للناقد الكبير جيسب كوفانن : giuseppe coffanin نادى فيه بأن نفس هذا اللفيف من النقاد الإيطاليين قد توارث الروح الكلاسيكية السائدة في عصر النهضة في إيطاليا .

ولم يكن النزاع بين الكلاسيكية والرومانتيكية في مبدأ الأمر سوى نزاع بين من يتعصبون للقديم ، وبين من يتعصبون للجديد في الأدب ، ثم ما لبث أن استفحل الشقاق واتسع الخلاف واتسم بطابع الغلو والاسراف . فلم يرض أنصار الكلاسيكية بالقديم على قدمه ، لأن بالقديم شيئا من شذوذ ، وليس من سبيل إلى كلاسيكية قويمة ، يحل فيها الشذوذ والاضطراب ، محل الانسجام والائتلاف .

ولفظة رومانتيكي ابتداع لغوى حديث ، ولكن ما توحى به في الذهن من معان معروف مشهور ، حتى قبل أن تخرج هذه اللفظة إلى حيز الوجود بعهد طويل . والنعت « رومانتيكي » أبعد في القدم من الإسم « رومانتيكية » . وقد استعمل أول

ما استعمل فى انجلترا بعد الفتح النورماندى فى العصور الوسطى التى اشتهرت بانتشار القصص الشعبية الفرنسية French romances وحظ الخيال المفرط والتأليف الخصيب فى هذه القصص أرفع شأناً من حظ الوقائع المعقولة والحقائق المجردة . ذلك لأن هذه القصص تروى ضروباً من البطولة خارقة ، وتحكى صنوفاً من المغامرات فذة ، وتتغنى بأشكال من البسالة والاقدام نادرة المثال؛ ومن ثم اشتقت لفظة رومانتيكى دلالتها من كل ما هو خارق فذ بعيد عن حياة الواقع . واستعملها الكتاب فى هذا المعنى أو فيايت لهذا المعنى بصلة قريبة وثيقة . ولنضرب مثلا بما جاء فى سنة ١٦٥٤ فى مفكرة ايفلين Evelyn أحد رجال البلاط الانجليزى المغرمين بمراقبة التطورات التاريخية وتسجيل الأحداث الشاذة المعاصرة لعهده « يوجد بالجانب الآخر من جبل الألب المهول هذا قصر رومانتيكى للغاية » . كذلك كتب صامويل بيبس Samuel Pepys أحد الثقات فى تاريخ إنجلترا فى القرن السابع عشر وصفاً موجزاً فى ١١ من مارس سنة ١٦٦٧ للدسائس السياسية التى كان يحيك أطرافها ملك فرنسا وقال فى الختام « هذه الأمور رومانتيكية قلباً وقالباً على وجه التقريب ، غير أنها حقيقية فقد أفضى إلى سير ه . تشوملى Sir H. Cholmly بأن الملك نفسه رواها له بالأمس » .

وإن دل هذا على شيء فلا يدل إلا على ثبات لفظة رومانتيكى على المعنى الذى أسلفنا فيه القول ، واتصافها بكل ما هو ناء قصى عن العرف والتقاليد أو ثائر عصي على المألوف والمعقول . وقد استعمل توماس سبرات Thomas Sprat هذه اللفظة فى كتابه : « تاريخ جمعية الأبحاث العلمية الملكية » ، The History of the Royal Society للمقابلة بين منهج البحث العلمى البحت ، وبين منحى التخيلات وما يشوبها من إغراق لا غناء فيه ، قال : وسوف يكون هذا المنهج رداً لأذهاننا من التضخم الرومانتيكى Romontic Swelliuq ، لأنه يكشف لها عن الأشياء فى صورها المألوفة . وفى مثل جرمها تماماً » وفى موضع آخر يقرر سبرات أن ما أصاب العلم من الغمز واللمز كان على يدى خصومه من المتحذلقين المتفلسفين الذين يرون أن العلم يصبغ الناس بصبغة رومانتيكية ، ويدفعهم إلى تصور الأشياء على صورة أكثر كما لا مما تحتمله الأشياء ذاتها . »

ثم أقبل القرن الثامن عشر وبسطت عليه فلسفتها هوبز Hobbes ولوك hocke ظلا لها الوارفة ، ووجد العلم التجريبى مرتعاً خصيباً وأحرز نصراً مبيناً ، فازداد الرأى القاتل ، بأنه فى الامكان تفسير العالم على ضوء العقل دون اللجوء إلى ما هو خارق أو الولوج إلى ما هو غامض ، قوة ويقينا . ومصداق هذا الرأى ما جاء على لسان هرد Hurd « إن نور العقل قد أشرق منذ عهد قريب ، وهو يوشك أن يسيطر على أطياف الخيال الجسيمة . » هذه الأطياف التى كانت تنزل فى القلوب منزل اليقين بمالها من قوة اقتناع وشدة تأثير ، ثم ما لبثت أن أودت بها عجلة الزمان ويد الحدثان هى التى أجمع النقاد على نعتها بالرومانتيكية .

وقد سبق أن ألمعنا إلى ما للرومانتيكية من صلة بالعصور الوسطى ، والآن يحق لنا أن نتساءل لماذا لم يرض هينى Heine عن هذه الصلة من حيث هى صلة لا أكثر ولا أقل ، حين يزعم أن لفظى رومانتيكى romantic وميديفال mediaval مترادفتان متكافئتان فى المعنى والجواب على ذلك هو ما جاء على لسانه « ما هى المدرسة الرومانتيكية فى ألمانيا ؟ إنها لم تكن ثمة شيء آخر غير بعث شعر العصور الوسطى من مرقده ، ذلك الشعر الذى تجلى فى المقطوعات الشعرية والرسوم الزيتية والتماثيل، وفى ألوان الفن وصور الحياة السائدة فى تلك الأوقات » ومثل هذا القول لا يطابق الأدب الانجليزى مطابقة تامة ، فالأدب الإنجليزى أوسع من أن تحده مثل هذه الحدود والقيود. والذى يجدر ذكره هنا فى صدد التعقيب على هينى هو أن القصة وسائر فنون الأدب فى العصور الوسطى مدينة لذلك الخيال المفرط الخصيب الذى اشتهرت به العصور الوسطى ، والذى ينبيء عن عقلية وليدة رضيعة من أظهر مظاهرها وأخص خصائصها بناء عوالم من الأحلام والأوهام . ولما كانت العصور الوسطى فى انجلترا مقرونة بتدمير الأديرة وتخريبها بعد تولى أسرة تيودر مقاليد الحكم ، فمن البديهى أن ينصرف اهتمام الأدباء فى القرن الثامن عشر الذى بعث فيه العصور الوسطى من جديد إلى الأنقاض والإطلال .

(البحث بقية)

فخرى قسطندى

مدرس بالمدارس الثانوية

في ركب الوحدة العربية :

الأدب في فلسطين ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

طلب إلى أن أتحدث فى فلسطين عن مصر ، وإن فلسطين لعزيزة على كل نفس ، حبيبة إلى كل قلب ، جديرة أن تذكر لدى كل بادرة ، ويستهل بها عند كل حديث .

ألست إذا ذكرت ذلك البلد الطيب – أينما كنت فى بلاد الله ، فى أوطان العروبة والإسلام – تحولت إليك الوجوه وتطاولت نحوك الأعناق ، وتطلعت لما تبديه القلوب والأبصار ؟ !

فيالله ما أعجب !! إن فى ذلك الاسم لسراً من الأسرار ، بل إن فيه لسحراً من السحر ! !

أجل . إن فلسطين لتلك ، وإن الحديث عنها لذو شجون . إنها البلد القدس ، إنها بلد الوحى والنبوة ، إنها القبلة الأولى فى الإسلام . فلا عجب أن تتشوق إليها كل نفس ، ويهفو لدى ذكرها كل فؤاد ... وإن مسالك الحديث عن فلسطين لكثيرة ، بل إنها لأوفر من أن يحيط بها حصر ، أو يطيف بها إلمام . فعلى أن أسلك سبيلا ينتهى إلى غاية ، فأتحدث عن حياة الأدب هناك .

وحياة الأدب فى فلسطين حديثة العهد قريبة الأمد . فلو ذهبنا مع التاريخ غير بعيد ، لألفيناها خلواً من الأدب جملة ، عدا نتف من هنا وهناك ، كانت تبدو على أقلام الفقهاء ، ورجال الدواوين ؛ لا يصح أن تسمى أدباً ، كما لا يصح أن تعتبر مظهراً من مظاهر الأدب على أية حال .

وحين نتوغل فى تاريخها . نجد أنها لم تنجب – على تطاول العصور – غير آحاد من الأفذاذ الذين كانوا يلتمعون بين حين وآخر ، وفيهم الكاتب والشاعر والمؤرخ . ومن هؤلاء : عبد الرحيم البيسانى (القاضى الفاضل) ، وصلاح الدين الصفدى (صاحب التآليف الكثيرة) ، ومجير الدين الحنبلى (صاحب الأنس الجليل فى أعيان القدس والخليل) . وآخرون غيرهم ، ندر أن تعاصر منهم اثنان ، فتركا أثراً بارزاً من آثار الأدب الخالد ، وذلك إذا اعتبرنا فلسطين فى حدودها التى تنحصر خلالها اليوم .

ولعل السبب أنها بلد مقدس ، فيه المسجد الأقصى حيث الصخرة المشرفة ، وفيه الحرم الإبراهيمى والأنبياء من أبنائه . ولذا كان هم من أعرض عن الدنيا وزخرفها ، أن يشد إليها الرحال ، ليقيم فيها منصرفاً إلى الله وطلب رضوانه ، مقبلا على تفهم كتابه وسنة نبيه .

ومن هنا نبغ فى فلسطين من أئمة الفقه ورجال السنة ، من بقيت آثارهم وفتاواهم – إلى اليوم – شاهدة على مبلغهم من هذا العلم ، وتبحرهم فيه . ومن هؤلاء : شيخ الإسلام خير الدين الرملى (صاحب الفتاوى الخيرية) والشيخ محمد الخليلى (صاحب الفتاوى الخليلية) ، والشيخ سعد الدين الديرى الخالدى (صاحب السهام الخارقة فى الرد على الزنادقة) ، والشيخ منيب هاشم الجعفرى النابلسى (صاحب الفتاوى الشهيرة) . وحسب فلسطين فخراً أن تنجب على رأس هؤلاء : الإمام الجليل (أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعى الغزى) الذى طبق ذكره الخافقين ، وانتشر مذهبه فى بعيد الآفاق .

« أضف إلى ذلك افتقارها إلى مفاتن الطبيعة وجمالها الفطرى ، وخلوها من اتساع الحضارة وارتقاء العمران . فلا أنهار تسلكها قوارب المتنزهين و طلاب المتعة ، وتنتشر على ضفافها الحدائق والمتنزهات ومواطن اللهو ، ولا مدن كبيرة واسعة الأرجاء ، مزدهرة الحضارة ، كثيرة الأرباض ملتفة الرياض والغياض . كما هو الحال فى القاهرة ودمشق وبغداد والمدينة وغرناطة وسواها[1] » .

ومن هنا تتبين أن فلسطين حديثة عهد بنهضتها الأدبية ، حتى أنه ما يزال معظم هؤلاء المؤسسين لها أحياء يرزقون . ونرجو الله أن يمد فى آجالهم حتى يؤدوا رسالاتهم على أتم الوجوه وأكملها .

ولعل الكثيرين من إخواننا فى مصر (وغير مصر) يجهلون أن فى فلسطين نهضة ثقافية وحياة أدبية ، ولا عجب

---

(١) هذا رأى يراه أستاذنا الكبير أحمد سامي الخالدى (عميد الكلية العربية فى القدس) . وليس لنا فيه غير صوغ الكلم .

فاننا نكاد نعيش في معزل عن العالم العربي ، لقلة وسائل النشر عندنا . فلا مجلات شهرية تضاهي (المقتطف) و (الهلال) ، ولا مجلات أسبوعية تماثل (الرسالة) أو (الثقافة) . اللهم إلا مجلة واحدة ، كان يصدرها قلم المطبوعات (شهرية) ، إبان الحرب الأخيرة ، واسمها (المنتدى) . وكان معظم ما ينشر فيها بأقلام مشاهير الكتاب من مصريين وسوريين ، وبعض الفلسطينيين ، ولذا لا تعتبر صورة صادقة عن الأدب الفلسطيني الخالص[1] .

كما أنه ليست هنالك دار للنشر تضاهي (دار الكتب) أو (دار الهلال) ، خلا دار حديثة ناشئة ، قام على تأسيسها جماعة في (يافا) ، وهي تصدر سلسلة شهرية من كتيب صغير ، على غرار سلسلة (اقرأ) في مصر إلا أن هذا الكتيب ينقص كثيراً في حجمه عن كتيب (اقرأ) ، بالرغم من أنه يساويه بالثمن ، وقد صدر من هذه السلسلة إلى الآن خمسة أعداد على ما أذكر .

إذن ماذا يصنع الأديب الفلسطيني ليعرفه الناس ويعرفوا آثاره الأدبية ؟ إن أمامه واحداً من السبل التالية ، وليس له عنه منتدح :

فاما أن يطبع كتابه أو ديوان شعره من خاص ماله ، ويعرضه في الأسواق (مجازفة) ويرتقب حظه ، ولا يقدم على هذا في الغالب إلا الموسرون من الأدباء . وهؤلاء كثيراً ما يصادفهم النجاح .

وإما أن يهتبل فرصة ملائمة ، تسوقها مناسبة من المناسبات . ويبادر فيحتجن إلى نفسه هذا المجال المحدود الذي تمده الصحف اليومية لذلك ، (وعندنا منها صحيفتان هما الدفاع وفلسطين[2]) ، فيملأ ذلك المجال بشعره أو بنثره الذي أعده لتلك المناسبة .

وإما أن يترقب ميقاته في (محطة الأذاعة الفلسطينية) ، ليحاضر الناس من وراء المذياع بشيء من أدبه . وهذه المحطة تعد في براجها أحاديث أدبية ، يقدمها في الغالب أديب فلسطيني أو أديبة فلسطينية .

وقد يتجنب الأديب هذه السبل جميعاً فينظم أو يؤلف لنفسه ، (وكثيراً ما يأتي بروائع مدهشة) . فيبقى بعيداً عن الناس ، لا يدري خبره إلا خاصة إخوانه وصفوة خلانه ، وسأقدم بعض هؤلاء الأدباء ، وأستشهد ببعض أقوالهم مصدقة لما وصفت .

هذا ما يفعله الأديب في فلسطين ليتعرف إلى الناس ويقدم إليهم إنتاجه ، وليس كل أديب عندنا يتأى إلى نشر أدبه في الأقطار المجاورة ، بل قليل ما أولئك .

وهأنذا أقدم بعض هؤلاء الأدباء الذين استطاعوا أن ينشئوا النهضة الأدبية في هذا القطر ، وبالرغم من ضيق ذلك الأفق الذي يحوط بالأديب كما أسلفت ، وأذكر في طليعتهم بعض من تقدم بهم الزمن . فظهروا في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر وتركوا آثاراً قيمة بين مخطوط ومطبوع ومنهم :

الأستاذ يوسف باشا الخالدي : وقد عاش هذا الأديب حياته بين العلم والسياسة ، فكان والياً ثم مبعوثاً في البرلمان التركي ، فرئيساً لبلدية القدس ، كما كان مدرساً في فلسطين ، ثم أستاذاً للعربية وآدابها في جامعة (فينا) ، وهنالك ألف كتباً عدة ، بعضها مخطوط وبعضها مطبوع . ومنها كتاب كان الأول من نوعه ، استنبط فيه قواعد اللغة الكردية ، وأسماه (التحفة الحميدية في اللغة الكردية) ، ومنها كتاب آخر اسمه (أنا) وهو مجموعة مذكرات وآراء ومعالجات شتى . كما شرح ديوان لبيد وجمع متفرقه وطبعه في (فينا) . وله عدا ذلك أبحاث شتى ومحاضرات عدة ، وقد أقام في الآستانة سوقاً أدبياً أسماه (عكاظ) ، وآزره فيه بعض معاصريه من الأدباء .

والأستاذ بندلي صليبا الجوزي : وكان هذا الأديب المقدسي أستاذاً للعربية واللغات السامية في جامعة (قازان) في روسيا . ثم في جامعة (باكو) . وله مؤلفات عدة أهمها : (الحركات الفكرية في الإسلام) و (الأمومة عند العرب) و (أمراء غسان) . وجميعها مطبوع . والكتاب الأخير منها يكاد يكون تاريخاً للمسيحية العربية في بلاد الشام ، ولعله استهدف ذلك في تأليفه .

ومن أبرز ما يمتاز به هذا الأديب صبره البالغ حد العجب ، وجلده المفرط على البحث الدقيق ، والتحري في تحقيق ما اشكل وانبهم .

---

(١) عادت هذه المجلة أخيراً تصدر أسبوعية وتسلك مسلكا جديداً كما صدر أيضاً عدد من المجلات مؤخراً . سأتناولها جميعاً بالوصف ، حين يستوجب الحديث ذلك .

(٢) صدر أخيراً صحيفتان جديدتان ماتزالان في طريق الاستكمال .

والأستاذ روحي الخالدي : وقد تنقل هذا الأديب في دراسته الأولى بين الآستانة وأوربة ، وكانت له محاضرات في جامعة (السوربون) ثم أقيم محاضراً في (جمعية نشر اللغات الأجنبية) بباريس . وكان عضواً في مؤتمر المستشرقين ، ثم قنصلا تركيا في (بوردو) بفرنسا .

ومن تصانيفه القيمة : (العالم الاسلامي) و (علم الأدب عند الأفرنج والعرب) و (الانقلاب العثماني) و (رحلة الأندلس) و (المسألة الشرقية) . وجميعها مطبوع . ومن كتبه المخطوطة : (علم الألسنة) و (تاريخ الصهيونية) وهما في المكتبة الخالدية في القدس .

ثم الشيخ يوسف النبهاني : وهو أديب فقيه شاعر . نزح من قريته (اجزم) قرب حيفا إلى بيروت ، وهناك التمع واشتهر وكان راسخ العقيدة شديد التعصب في دينه ، وتبدو آثار تعصبه هذه في معظم ما صاغه من شعر وأبدعه من نثر .

وله مدائح نبوية كثيرة ، تكاد تكون معظم شعره . وكانت تربطه بالأمير شكيب أرسلان صداقة وثيقة العرى ، تتجلى بما كانا يتبادلانه من شعر ونثر . كما كانت تربطه بالأستاذ فارس الشدياق أواصر إلفة ومودة ، حملته على أن يرثيه حين موته بقصيدة رائعة قال فيها :

كم من مشاكل أعيتني فأوضحها
وقال هاك فكاد الطفل يحكيها

وله قصائد (أيضاً) غاية في متانة السبك واختيار الألفاظ ، إلا أنها قيلت في هجاء الأئمة الثلاثة المصلحين ، (جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا) وهم أعلام الهدى والفضل كما تعلم ! !

ويمدح الشيخ الصيادي بقصيدة يقول فيها :

وعمت دار الملك أحسب أنها ... إلى اليوم لم تبرح إلى المجد سلما
فألفيت فيها أمة عربية ... يرى الترك منها أمة الزنج أكرما

وللنبهاني كتب كثيرة ، أذكر منها كتابه (الأنوار المحمدية[1]) .

(له تكملة) **محمد سليم الرشدان**
(ماجستير في الآدب واللغات السامية)

(١) الأستاذ (إسعاف النشاشيبي) أديب العربية الأكبر معجب بهذا الشيخ إعجاباً يفوق الوصف . ويقول — حفظه الله — : إنه لو نشأ في غير بيئته لكان (على عبقريته) من أنداد شوقي وحافظ

ويلتا لو علموا . . . . !

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

من كتاب العمر ، من سفر السنين
صفحات عند أخرى ينطوون

ما روى مرقومها غير الأسى ... ما حوى مسطورها غير الأنين
عبراتي في حواشيها جرت ... وجراحي قطرت فوق المتون
يا لعمر رنقت منهله ... نفثات الدهر والدهر خئون
جزتها تسعاً وعشرين فهل ... غير كأس الشجو عاطتني السنون
مرست لي الصاب في شهد الصبى ... ومن الأفراح عاضتني شجون

* * *

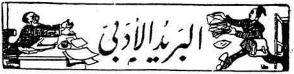
ويقولون : تحدى واقعاً ... قيد الروح بأغلال العذاب
وانعمي بالعمر ، ما العمر سوى ... غفوة العين على حلم كذاب
يتصدى تارة جهم الرؤى ... وهو طوراً ذو خيالات عذاب
هو ذا الواقع ، حلم عابر ... فاغنميه كلما لذ وطاب
وإذا يسرى وجيماً راعباً ... فتحديه بأفراح الشباب
وابسمي ، فالزهر رفاف الندى ... وانعمي فالغصن ريان الإهاب

* * *

ويقولون : اصدحي وانطلقي ... من إسار الحزن، من قيد الفكر
حسب ألحانك ما أرسلته ... من شجا فيها ودمع منهمر
أبكاء والتياعاً وأسى ... والصبى فرحة أيام العمر
والصبى طير طروب روحه ... غرد ما راح ، شاد ما بكر
خاطف عما قليل ظله ... إذ يوافيه الخريف المنتظر
حين لا النوار نمام الشذى ... لا ، ولا الروض أنيق مزدهر

* * *

ويلتا لو علموا كيف هوى ... ذلك الطير دراكاً من سماه
الدياجي طبقت آفاقه ... والرياح الهوج طاحت بقواه
من رآه قلقاً في وكره ... لائباً ، يوشك يرديه صداه
إن هفا يبغي انطلاقاً كسرت ... من جناحيه أعاصير الحياة
أو شدا قام الشجا معترضاً ... آخذاً منه بأوتار اللهاة
... ...
كيف يشدو ؟ كيف يهفو وعلى ... ريشه يجري نجيع من دماه



حول (لاغير) :

نشرت (الرسالة) الغراء في عددها ٦٧٦ رداً ضافياً للاستاذ الجليل النشاشيبي انتقد فيه تعليقة الأستاذ المدني على (لاغير) الواردة في (عبث الوليد) ومما جاء في هذا الرد قوله : (وإن خيل أنه جاء من أعمال (لا) عمل (ليس) ، فاللحن نفسه يسطر) الخ ...

وهنا مع تقديري للاستاذ الجليل وإعجابي بنقله وتحقيقه أرى أن في رده هذا ما يحتاج إلى التعليق فأستأذن حضرته في إبداء الملاحظة الآتية :

يرى لفيف من النحاة كالسيرافي وابن هشام أن كلمة (غير) لا تقطع عن الإضافة لفظاً إلا إذا تقدمتها (ليس) ، وفي غير هذه الحالة لا يرون القطع لعدم سماعه عن العرب ومن ثم لحنوا من يقول : (لاغير) لتجاوزه بالقطع مورد السماع قال السيرافي : الحذف إنما يستعمل إذا كانت (غير) بعد (ليس) ، وإذا كان مكانها غيرها من ألفاظ الجحد لم يجز الحذف ولا يتجاوز بذلك مورد السماع) .

وقال ابن هشام : (ولا يجوز حذف ما أضيفت إليه (غير) إلا بعد (ليس) فقط كما مثلنا وما يقع في عبارات العلماء من قولهم : (لاغير) فلم تتكلم به العرب) .

وقال الأشموني في تنبيهات الإضافة : « الثاني قال طائفة كثيرة لا يجوز الحذف بعد غير (ليس) من ألفاظ الجحد فلا يقال قبضت عشرة (لاغير) » .

وبهذا يتضح جلياً أن اللحن لم يجيء في نظر هؤلاء اللحنين من أعمال (لا) عمل (ليس) كما ظن الأستاذ الجليل حفظه الله وإنما أتى من مجاوزة مورد السماع في القطع كما مر آنفاً ومن هنا كانت إطالة الأستاذ في الاستدلال على جواز أعمال (لا) عمل (ليس) جهاد في غير عدو ، وكان على الأستاذ وقد جنح إلى تخطئة هؤلاء اللحنين كما جنح إليها كثير من المحققين أمثال ابن مالك وصاحب القاموس وغيرهما أن يقابل الدليل بالدليل ، ويثبت سماع القطع مع (لا) عن العرب الذين يستشهد بكلامهم في هذا الموضوع كما فعل ابن مالك في شرح التسهيل حيث أثبته في قول الشاعر :

جواباً به تنجو اعتمد فوربنا لعن عمل أسلفت لا غير تسأل

ولكن الأستاذ رعاه الله أغفل هذه الناحية واكتفى بعرض (جريدة) من استعمال المؤلفين (ومنهم المعري موضع النزاع) وهو يعلم جيداً أنها ليست بالحجة القاطعة في محاججة المانعين ، وأنها إن أقنعت أمثالي من المقلدين فلم تقنع أمثال السيرافي وابن هشام من زعماء النحو المجتهدين ، فياحبذا لو أن الأستاذ أعاد الكرة ، واستظهر دواوين العرب ورسائلهم فربما يعثر فيها على شواهد أخرى تؤيد الشاهد ابن مالك الآنف الذكر الذي وصفه الدماميني بأنه شاهد غريب وما ذلك على همته العالية (وهو ابن بجدتها) بعزيز ، والسلام عليه ورحمة الله .

(طرابلس الغرب) **عبد الرحمن الفلهود**

١ — بيان :

نقلت ست جرائد في مصر والعالم العربي ، مقالتي الثالثة عن (يوم الجلاء) المنشورة في الرسالة ، وعلق أكثرها عليها تعليقاً لم أجد معه بداً من أن أبين (للحقيقة والتاريخ) أن الزعيم السوري إبراهيم بك هنانو قد توفي من عشر سنين .

٢ — ثناء بالحق :

أهدى إلي من القاهرة العددان الأخيران من مجلة (شباب محمد) فوجدت فيهما من صدق اللهجة ، والصدع من الحق ، وإصابة المحز ، ووصف حقيقة الداء ، ما جعلني أقول :

هذا ما أراده المصلحون فأخطأوه ، وحاموا حوله فلم يبلغوه .

فللقائمين على هذه المجلة — وإن كنت لا أعرف أحداً منهم — شكري وإكباري ، وأسأل الله أن تكون أفعالهم كأقوالهم ، وأن يكثر في مصر من أمثالهم .

٣ — خطأ تاريخي :

في (قضية سمرقند) لعلي الطنطاوي (الرسالة ٦٨١) خطأ تاريخي، والصواب فيه أن قتيبة بن مسلم لم يدرك أيام عمر بن عبد العزيز، وأن العامل على سمرقند في تلك الأيام هو سليمان بن أبي السري.

نبهت على ذلك قبل أن ينبه عليه غيري.

علي الطنطاوي

الموسيقى والغناء الشعبي :

يظن بعضهم أن الغناء الشعبي نوع من الموسيقى السهلة يستطيع أن يدخل في مضمارها كل من أوتي حظاً قليلا من المعلومات الفنية، وهم في هذا لا محالة خاطئون، فإن الموسيقى الشعبي مضطر إلى مراعاة أمور كثيرة في فنه قد لا يلتزم فيها غيره منها دراسة نفسية الشعب والتزام حدود الأخلاق فيما ينتج من فنه فوق ما يحتاج إليه من قدرة في التصور وثقافة علمية وموهبة فنية، ثم هو يمتاز بعد ذلك بصفاء النفس وشعور خلق من التعقيد الذي يفسد سذاجة الطبيعة، وبهذا تتحقق الغاية من فنه، وهي الارتفاع بنفسية الشعب وترقية أخلاقه وتهذيب مشاعره . .

فالموسيقى إذن أداة من أدوات التهذيب لا تقل في أثرها عن فن الكاتب وأساليب المصلح، فهي أسهل مدخلا إلى النفس، إذ لا يبذل المستمع ما يبذله من جهد في الاستمتاع بسائر الفنون الأخرى التي تتطلب منه جهداً عقلياً، بل هي تنفذ مباشرة إلى النفس دون وساطة العقل

من الفنانين الذين قد اجتمعت لهم تلك الخصائص الفنان العظيم المرحوم الشيخ سيد درويش، تلك العبقرية النادرة التي هي من أعظم مصادر فخرنا، والتي لا نفتأ نحس بالعظمة ونشعر بالعزة كلما ذكرناها ...

ولكن كم يزداد أسفنا حينما ننظر الآن إلى موسيقانا الشعبية وما أصابها من إسفاف وتبذل، حيث أننا نطلق الآن عليها هذا الإسم من باب التجاوز لا من باب الحقيقة، فما هي إلا مظهر من مظاهر العبث والانحلال الخلقي يتمثل في فئة من الشباب قد عجزت عن تحصيل عيشها من طريق مشروع، فانطلقت تملأ الجو بما من الله به عليها من هذا (الفن) الذي نخشى أن يؤدي بنا يوماً إلى العار المطلق والسقوط الشنيع .. !

هذا، علاوة على ما شاع في الأغاني من عبارات لا يقصد منها إلا استفزاز الغريزة واستثارة الشهوات بأقبح أساليب التعبير وأحط ضروب الكلام ! !

فهل يمكن أن نأمل لهذا الحال صلاحاً ؟ إننا نهيب بولاة الأمور أن لا يتركوا الأمور تجري على هذا الحال الشين، وأن يضعوا حداً لهذا الشر الشائع والفساد المنتشر ... فلعله إذا صحت الموازين، واستقامت الأحكام أن تجني البلاد ثمار عباقرتها المغمورين وأفذاذها الخاملين ! !

عبد الحليم أحمد عبد العال

معهد فؤاد الأول للموسيقى العربية



قصة من الأدب الروسى الرفيع :

الملاك . . .

للكاتب الروسى الكبير لوى تولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

[ولد تولستوى — فيلسوف روسيا العظيم — فى ٢٨ أغسطس سنة ١٠٢٨ من عائلة عريقة « أرستقراطية » وكان شغوفاً بالعلم ، مكباً على الأدب محباً للحكمة . . . فلما رأى ذلك البؤس الذى يحيط بالفلاحين . . وشاهد تلك التعاسة التى تكتنف العمال ... انبثق فى فؤاده نور الحق ، وتفجرت فى قلبه عيون الرحمة والعطف ، فعقد فى نفسه ألا يهدى باله حتى يقوم على إسعادهم ، ولا يسكن فؤاده حتى يعمل على خيرهم . وظل — طيلة حياته — يكافح فى سبيلهم ، فعاش فى أملاكه يزرعها ويقسم ما تغله بين الفلاحين ، ثم لم يلبث أن تخلى عنها ووزعها بينهم . . . واتهم — آخر أيامه — بالإلحاد . . فاختنى ردحاً من ا من .

ويعد « تولستوى » القطب الأول والكاتب الأكبر فى روسيا . . . وتعد كتبه « الأناجيل الأولى » للثورة المشفية ، التى بذر بذورها . . . غير أنه لم ير الغرس وهو يستوى على ساقه ، فيهز الروسيا ويهز العالم أجمع . . . فقد قضى فى ٢١ نوفبر سنة ١٩١٠ .

وما زالت كتبه — وقد شاعت فى أرجاء العالم — تظفر بكل إعجاب وإجلال . ومنها « البعث » و « القيامه » و « الحرب والسلام » و « أين المخرج » . . .

وهذه القصة — التى نبسطها اليوم على صفحات « الرسالة » الغراء — من أروع الأمثلة على ما كان يفيض به تولستوى من الحس العميق والوصف الدقيق لحياة عائلة من تلك الطبقة التى كرس حياته لرفعتها ونصرتها . .

وقد دعتنا الضرورة إلى تحوير العنوان التى عرفت به هذه القصة وهو « what Men Live By » أى « بماذا يعيش الناس » ؟] « م . جميل »

كان الاسكاف « سيمون » يعيش مع زوجته ، وأبنائه فى شظف من العيش يسكنون كوخاً صغيراً مقفراً ، بأجر من المال يؤدونه لصاحبه الفلاح ... وكان « سيمون » يكسب رزقه من عمله فى جهد وجحد ، وينفق كل ما تمسكه أنامله من دراهم على إطعام عائلته ، وما أندر الخبز فى ذلك الحين!

وكان للرجل وزوجته مدرعة من صوف يرتديها كل منهما حيناً فى الشتاء ، حتى رثَّت وبليت ، وقد تقضى عام وهو عازم على شراء مدرعة أخرى ، فما أن أقبل الشتاء ، حتى أمكنه أن يقتصد بعضاً من المال : ثلاث « روبلات » مخبأة فى صندوق لزوجته ، وخمس « روبلات » وعشرين « كوبك » يدين بها بعضاً من زبائنه !

وتهيأ ذات يوم ليؤم القرية ، فارتدى « مَطرف » زوجته على قميصه ، ثم لبس ثيابه الأخرى فوق ذلك ، ووضع الثلاث « روبلات » فى جيبه ، واقتطع لنفسه عصاً يتوكأ عليها ، واتخذ سبيله إلى القرية بعد أن أفطر ...

وفى طريقه راح يحدث نفسه : « سوف أحصل على الخمس « روبلات » وأضيفهما إلى الثلاث « روبلات » فيصير ما معى كافياً لشراء مقدار من الصوف لمدرعة الشتاء ! »

ولما بلغ القرية بعد لأى طرق باب أحد الفلاحين فلم يجده بالدار ، ووعدته زوجة الفلاح أن النقود سوف تصله فى الأسبوع القادم ! وطرق « سيمون » باب فلاح آخر ، فأقسم له هذا أن يديه صفر من المال ، وسيدفع له كل ما معه « عشرين كوبك » قيمة إصلاح حذاء قام سيمون برتقه !

فحاول « سيمون » أن يشترى « صوف المدرعة » بما معه ، وبقرض يؤديه بعد حين ، فرفض البائع قائلا فى صوت ساخر : « إيتنى بالمال ، وسوف يكون لك ما توده من الصوف ، فإنا نعلم كيف يحصل المرء على دينه ! »

فأحس سيمون بالخور يسرى فى جسده ، والقنوط يتسرب إلى فؤاده ، فقام إلى حانه حيث نهل كأساً من الخمر بعشرين « كوبك » ، وقفل راجعاً إلى داره !

كان للخمر أثرها فى سيمون ، فسرى الدفء فى عروقه ، وزادت من قوته ونشاطه . فراح يفكر : « إنى أحس بجوانحى تختلج دفئاً وحرارة ، مع أنى لست مرتدياً مدرعة من الصوف ، لقد تناولت قطرة من الخمر فكان لها أثر النار تسرى حرارتها فى

عروق ، فلست بحاجة لمدرعة من الصوف أقى بها جسدى زمهرير الشتاء ! ! »

ليت زوجتى ترتشف قليلا من الخمر . فتحس ما أحس ! ! صه ... ويلك ... أتود أيها الرجل أن تقضى عليك زوجتك إن خبرتها أنك تناولت بعضاً من الخمر ... إنها سوف تحطم الآنية على رأسك الفاضل ..! ياله من سائل عجيب يدفع النشوة إلى الروح والحرارة إلى الجسم !! . لست أبالى شيئاً ... ولكن زوجتى سوف تكتئب ويؤلمها أنى عدت دون صوف المدرعة !. ليس على من جناح !! ... فقد طلبت حقى فأنكره واحد . وأعطانى الآخر عشرين « كوب » ... هه ... وماذا أنا فاعل بها .؟! لست أدرى غير أن أشرب بها ... إن الواحد من هؤلاء يملك الأرض والدور والحيوان ... ثم يبخل على بحقى حقى الذى أعمل سحابة يومى وجنحاً من ليلى كى أظفر به ... فإذا ما انتهيت أنكروه على يا للعار . إن الواحد منهم لينعم بالدقيق والطعام أما أنا فأنفق ثلاث « روبلات » كل أسبوع للخبز وحده ... فإذا ما عدت إلى الدار وجدت الخبز قد أكل فأبيت على الطوى ! . وهل أملك غير ذلك ؟ ! ومن أين آتى بالنقود ؟ ! أمن « هؤلاء » الناس الذين لا يقيمون عن الطعام إلا وقد أصيبوا بالتخمة .!! »

كانت تلك الأفكار والخواطر تضطرب بين جوانحه . حين أدرك — فى سيره — الكنيسة فى منعطف الطريق . فرأى جسداً كالثلج فى نصاعته !. فراح ينعم النظر دون أن يتحققه أيكون ثوراً !. لا ليس شبيهاً بالثور .! إن له رأساً يشبه رأس الإنسان ! بيد أنه ناصع البياض ! ... »

واقترب منه حتى أمكنه أن يجتلى الأمر ! . وكم كانت دهشته حين أدرك أنه إنسان عار ... يجلس إزاء الكنيسة فى سكون يدفع الرهبة إلى القلب ... فطار فؤاده هلعاً ، وتلبسه الخوف فزعاً : « لا بد أن أحداً قد قتله .. وخلفه هنا .. سوف أمسك علىّ فضولى أو أصاب بأذى ... »

وأنطلق فى سبيله ولكنه التفت إلى ماوراءه فرأى الرجل الجالس ينظر إليه ... فراع ذلك سيمون وزاد من جزعه . « أأعود إليه أم أنطلق ؟! إن أنا عدت إليه فسوف يحدث مالا يرضينى ـ بل يجلب الضر إلى نفسى فما وجد ثمت إلا لسوء .. ولعله يثب على ويخنقنى . وحينئذ لا تنفعك رحمتك ولا تشفع لك شفقتك ... وماذا أنا فاعل بإنسان عار ؟! لست بمستطيع أن أخلع عليه ما لا أملكه . دعه فللسماء شأن معه ! » وأسرع سيمون فى خطاه لا يلوى على شىء . بيد أن ضميره أخذ يؤنبه . فتوقفت خطاه . وأخذ يهمس فى حيرة ويهمهم فى وجل : « ماذا أنت فاعل يا سيمون ؟ ! هب أن الرجل يلفظ آخر نفسه ! . ألا تتق الله فى فرارك منه ورغبتك عن عونه ! ! أأنت فى وفر من المال حتى تخشى أن تسرق ؟! ياللعار ياسيمون . ! » فانقلب آيباً إلى الرجل ونفسه مضطربة وقلبه يخفق ...

***

دنا سيمون من الرجل الغريب ، وراح يجيل الطرف فيه .. فرآه شاباً على جمال وحسن ! وليس على جسده أثر لجرح أو شج وقد جلس ثم معتمداً ظهره إلى جدار الكنيسة لا يرفع طرفه إلى سيمون من الوهن والضعف . فلما أحس بسيمون رفع رأسه إليه ، وألقى إليه بنظرة . كانت كافية لأن تستدر كل ما يختلج بين جوانح سيمون من عطف ورفق وحب . فخلع حذاءه . وألقى عن نفسه رداءه . وقال فى صوت خفيض فيه حنان وفيه رأفة : « ليس ثمت مجال للحديث !! . هيا إرتد هذا الثوب . » وأمسك سيمون بمنكبى الرجل ، وأعانه على النهوض ...

فلما نظر إليه — حينما انتصبت قامته — ألفاه ... مديد العود ... جميل الوجه ... فألقى على كتفيه رداءه وأعانه على لبسه وهم « سيمون » يخلع قبعته ليضعها على رأس الغريب . فأحس برأسه يقشعر من البرد فقال فى نفسه : « إنى أصلع ! . أما هو فله غدائر معقوصة فلا خوف عليه ! . بل يحسن أن ألبسه حذائى ... » فأقر قبعته على « صلعته » وأجلس الرجل . وجعل حذاءه فى قدميه ... وهو يقول فى جرس طيب عطوف « هيا . أيها الصديق . استشعر الدفء ودع باقى الأمور تجرى وفق مرادها أفى قدرتك أن تسير ؟! »

فنهض الرجل ونظر فى امتنان إلى سيمون دون أن ينبس ببنت شفه فقال سيمون : « لماذا لا تتكلم ؟! إن البرد لقارص فلا بد من العودة إلى المنزل توكأ على عصاى وإلا أحسست بوهن وخوار . فاعتمد على ساعدى ... »

وخطا الرجل فى تعب وجهد . وفى خلال السير رفع سيمون صوته قائلا :

« من أين أنت ؟! . »

— « لست من هذه البقاع! »

« كذلك حدست . فإنى أعرف القوم هنا .! ولكن كيف قدر لك أن تصير هكذا جوار الكنيسة ؟! »

« لست أدرى ! »

— أساء أحد معاملتك ؟!

— لم يتعرض لى أحد بسوء ؟ لقد عاقبنى الله ...

دون ريب ... هذا هو حكم الله . سوف تجد عيشاً ومأوى أينما ذهبت ! فأين تروم ! »

— لست أدرى ! . »

فتولى سيمون الدهش . فما كان الرجل صاحب سوء أو خبث وتجلى من لهجته أنه خالص القلب . ولكنه لا يعلم عنه شيئاً .

« من يدرى ما سوف يحدث !! » والتفت إلى صاحبه وقال :

« حسنا ! . تعال إلى دارى على الرحب والسعة .! »

هبت الريح عاتية ، فياضة بالصقيع . فسرت القشعريرة فى جسد سيمون بعد أن أفاق من نشوة الخمر وذهبت عنه حرارته فأخذ يدثر نفسه برداء زوجته بعد أن خلع رداءه ... وراح يتحدث إلى نفسه : —

« والآن ، وقد ذهبت الخمر ، أعوزنا صوف الدرعة ، لقد انطلقت اليوم كى أعود بالصوف ، فأعييت بالصوف ولا ردائى أنا ، وفوق ذلك أتيت معى برجل عار ! سوف تستاء « مترونا » من ذلك ! »

وحينما جالت بفكره « مترونا » زوجته أحس بالانقباض والألم يتغلل فى جوانحه ، بيد أنه عندما ذكر صديقه الغريب ونظرته إليه فى امتنان وحمد رقص قلبه بهجة ومراحاً ...

* * *

نهضت « مترونا » زوجة سيمون ... ذلك اليوم بعبء واجبها المنزلى خير نهوض وانتهت من عملها مبكرة ... قطعت الأخشاب ... وحملت الماء ... وأطعمت الصغار ... وتناولت هى وجبتها ... وجلست ترقب أوبة زوجها ... وراحت تسائل نفسها :

« أيكفى الخبز ... أم علينا أن نعمل بعضاً منه الآن ... لو أن « سيمون » تناول طعامه فى المدينة ... ولم يكن فى حاجة للخبز فى العشاء ... فسوف يمتد أجل الخبز يوماً آخراً ... لست بقادرة اليوم على أن أصنع خبزاً ... وسوف أدبر كل شىء حتى يكفينا إلى يوم الجمعة القادم ... » .. ووضعت مترونا قطعة الخبز الباقية فى مكان حريز ... وجلست ترتق ثياب زوجها ... وفى غضون ذلك راحت تفكر كيف يشترى زوجها صوف الدرعة كى تقيهما برد الشتاء ...

« آه ... لو أن البائع لا يخدعه ... أن زوجى لغر ... ! سهل على من يقوده ... إنه لا يخدع أحداً ... ولكن الطفل يستطيع أن يعبث به ... ثمانى روبلات مقدار كاف لشراء أجود الأصواف وأمتنها ... ! كم كنا نرتعد برداً ونرتجف من الصقيع فى الشتاء الماضى ... وما كنت أستطيع أن أهبط النهر أو أذهب إلى مكان آخر ولكن لقد بكر سيمون فى الذهاب ! ! وما عاد إلى الآن ... آمل أنه لم يذهب إلى الحانة ! ! .

ما كادت « مترونا » تردد هذه الخواطر فى ذهنها ... حتى طرقت أذنها أصوات وأحست أن بعضهم دلف إلى الدار فقامت تجتلى الأمر ... فأبصرت رجلين : سيمون زوجها ، وشخصاً آخراً . عارى الرأس ينتعل حذاء زوجها ! أ لم تره من قبل ! . »

وحينما لاحظت أن زوجها تفوح منه رائحة الخمر ... وليس عليه رداءه ... ولا يمسك بيده حزمة من الصوف ... أخذ مرجل غضبها يفور ...

وأفسحت لهما حتى دلفا أمامها ، ثم تبعتهما ... ووقع بصرها على ذلك الرجل الغريب وقد لبس رداء زوجها ... فلما دخلا الغرفة وقف الرجل الغريب لا يتحرك ولا يرفع بصره إليها ...

فقالت فى نفسها « لعل السكر أخرسه وذهب بعقله ... »

وعبست بوجهها وقطبت جبينها ... ووقفت جوار « التنور » ترقب ما سوف يعملان ... !

وخلع « سيمون » قبعته ... وجلس على أحد المقاعد ... وكأن الحال يجرى على ما يرام .

— « هيا مترونا ! ! إن كان العشاء معداً ؟ ! فأتينا به ..! »

فزمجرت « مترونا » كاللبؤة الغاضبة ... ولم تتحرك من مكانها

جوار التنور — فرأى سيمون بوادر الشر تلوح فى وجه زوجته ... فأراد أن يهدىء من روعها ويظهر أنه لم ير شيئاً ... وقدم لصاحبه كرسياً وقال له فى مرح « إجلس ودعنا نصيب شيئاً من الطعام ... ! هيا « مترونا » أما أعددت لنا شيئاً ؟ ! »

كانت نفس مترونا تلتهب غضباً وتغلى حنقاً فانفجرت قائلة :

— « بلى ... لقد أعددت الطعام ... ولكن ليس لكما ... ! يخيل إلى أنك أنفقت نقودك فى الشراب ... لقد ذهبت كى تحضر صوف المدرعة ... فما عدت إلا ومعك شريد عار عربيد ... ليس لدى طعام للسكارى ... ! »

— « كفى مترونا ... أمسكى عليك لسانك ... ! يحسن بك أن تسألى أى إنسان هذا ؟ »

— بل يحسن بك أن تخبرنى ما ذا فعلت بالنقود ؟ ! »

فأخرج « سيمون » الثلاث « روبلات » من جيبه وقال : « ها هى ذى النقود .. لم يؤد « تريفنوف » ما عليه .. ! ووعدت زوجته بأنه سوف يدفع ... » فلم يهدئ هذا من غضب مترونا ... فهو لم يحضر الصوف ... بل أنه ألبس واحداً عارياً ثوبه وأتى به إلى بيته ... فاختطفت النقود من يده لتضعها فى مكان أمين وقالت لزوجها ... « ليس عندى طعام ... وما بمقدورنا أن نطعم كل سكير عار فى العالم ... ! »

— « قلت كفى مترونا خير لك أن تسمعى أى إنسان هذا — ! »

— « أمن الحكمة أن أنصت إلى سكير ؟ ! لقد كنت أعرض عن الزواج بك لهذا ... ! »

* * *

حاول سيمون أن يخبر زوجته أنه لم يشرب إلا بالعشرين « كوبك » ... وحاول أن يبصرها بالحالة التى وجد عليها صاحبه الغريب ... بيد أن مترونا كانت تنطق بسرعة هائلة ... وتذكره بأشياء مضت منذ عشرين عاماً ... وراحت تتحدث وتتحدث ، وأخيراً أمسكت بسيمون وراحت تصيح :

« أعطنى ثوبى ... أنه الوحيد الذى أمتلكه ... ! وقد أعرته لك كى تحضر صوف المدرعة ... ناولنيه أيها الكلب الأجرب ... وليعبث بك الشيطان ! ! . »

فأخذ سيمون يخلعه ... ثم ناوله إياها ... فألقته على رأسها وهمت بالخروج إلا أنها توقفت ... ! وقد جال فى نفسها أن تعرف سر ذلك الرجل الغريب فقالت لسيمون:

لو أنه رجل مهذب لما أعجزه أن يستر نفسه بثوب يشتريه ! أيمكنك أن تخبرنى أين عثرت « عليه » ؟ ! »

— هذا ما كنت على وشك أن أخبرك إياه ... حينما أدركت الكنيسة وأنا فى سبيل العودة — أبصرته جالساً عارياً يكاد أن يتجمد من البرد والصقيع ، فقد بعثنى الله إليه قبل أن يقضى عليه الجوع والعرى ، فما ذا كان على أن أفعله سوى أن أخلع ثوبى وألبسه إياه وآتى به معى ؟ فما كان له من مأوى ! ! ما الذى يدرينا كم كان يلاقى من العذاب الشديد ؟ لا تغضبى يا مترونا ، إن هذا ذنب غير مغتفر ، واذكرى أننا سوف نموت جميعاً يوما ما ! »

وارتفعت ألفاظ الغضب إلى شفتى « مترونا » ، ولكنها ما لبثت أن ماتت قبل أن تلفظها ، فقد نظرت إلى الرجل الغريب وهو جالس فى سكون ووداعة على مقعده ، يداه معقودتان على فخذيه ، ورأسه ساقط على صدره ، وعيناه مغمضتان ، وجبينه مقطب ، كأن الألم ينهش فؤاده فينعكس على صفحة وجهه ! فصمتت « مترونا » على مضض ... وقال سيمون فى صوت شاع فيه الرجاء والأمل : ألا تحبين الله يامترونا ؟ ! . »

* * *

فما سمعت « مترونا » هذه الكلمات ، وألقت طرفها ثانية إلى « الصاحب الغريب » حتى فاض قلبها إيماناً ... وراحت الرحمة تدب فى نفسها ... وأخذ الحنان والعطف يهز فؤادها ... !

فذهبت إلى « التنور » وأتت بالطعام ... ووضعت قدحاً على المائدة وصبت فيه بعض الشراب الساخن ثم أحضرت قطعة الخبز من مخبئها ومعها سكينان وملعقتان ... وقالت فى صوت يفيض عطفاً . تفضل فتناول بعض الطعام ... !

وأدنى سيمون المائدة من صاحبه . وفتت الخبز ووضعه فى المرق وراحا يأكلان .. وجلست مترونا فى جانب من المائدة ! ترقب الضيف فى نظرات فاحصة . فزاد عطفها عليه ورأفتها به .

وحينئذ أشرق وجه « الغريب » وأضاء . فكأنه البدر يرفل فى هالة بالسماء . . ورفع عينيه النجلاوين إلى « مترونا » ونظر إليها نظرة وديعة . وافتر ثغره عن ابتسامة حلوة عذبة ...

(يتبع) **مصطفى جميل مرسى**